لطائف البيان

في تفسير القرآن

تفسير جزئي الفرقان والنمل

(١٩-٢٠)



تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الفرقان والنمل

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الفرقان والنمل

(١٩-٢٠)

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي الفرقان والنمل (19-20).

تأليف: أ.د.حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (261 صفحة).

الطَّبعة: الأولى، 1446هـ - 2025م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (126) 2024م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الفرقان والنمل

(١٩ - ٢٠)

تأليف

أ. د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبّر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، وقد يسّر الله لنا إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عددٍ من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار – جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يوميٍ بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصيًا من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض

النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: "لطائفُ البيان في تفسير القرآن".

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب السادس من هذه السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (الفرقان والنمل) (19 – 20).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعًا، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

1 ذو الحجة 1446هـ

تفسير جزء الفرقان

(19)

تفسير سورة الفرقان

تفسير المقطع الأول من سورة الفرقان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ
مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ
فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ
وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ
مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ
نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ
سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ
قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ
سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ
ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ
ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا
مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الفرقان؛ سورة مكية[1]، **والمقصد العام لها** هو الدفاع عن رسول الله ﷺ، والانتصار لحقوقه، ورد شبهات المشركين وطعنهم فيه وفيما جاء به من القرآن الكريم.

ابتدأت بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾، تبارَكَ؛ تفاعل من البركة، **أي:** تعاظَم خيره جَلَّ وَعَلَا، وهذا اللفظ لا يُطلق إلا على الله ولا يُصرف إلى غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **ومعنى البركة:** الكثرة من كل ذي خير[2]، **والمقصود به هنا** الخير المستمر من الله على رسوله ﷺ بإنزاله القرآن الكريم عليه، وسمى القرآن فرقانًا؛ لأنه يُفرق بين الحق والباطل، ولأنه نزل مُفرّقًا على مدة ثلاثةٍ وعشرين عامًا، وهي مدة حياة النبي ﷺ بعد البعثة، **ولذا عبّر بقوله:** ﴿نَزَّلَ﴾، وفيها معنى التكرار والتكثير[3]، ووصف رسولَه محمداً ﷺ بالعبودية؛ لأنها الصفة الكاملة له، وهي أفضل الصفات، فالإنسان إذا أراد أن يترقّى في منازل الصفات؛ فعليه أن يترقّى في منازل العبودية لله تعالى، وقد اختار الله هذا الوصف لرسوله ﷺ في منازل التشريف والتكريم، **فوصفه بذلك حين إنزال الوحي عليه، كما في قوله:** ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⑩﴾ [النجم:10]، **وعند الإسراء به، كما في قوله:** ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ

---

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 92).

(2) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 57).

(3) تفسير ابن كثير: (6/ 92).

لَيۡلٗا﴾[الإسراء:1]. **وعند قيامه بالدعوة والإرشاد، كما في قوله:** ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن:19]، فكل هذه المقامات العظيمة ذكر الله نبيّه فيها بوصف العبد، وقد أضاف فيها لفظ العبد إلى ضمير الذات الإلهية، وإلى الاسم الظاهر، وقد انفرد بذلك محمدٌ ﷺ دون غيره من الرسل الذين كان يذكرهم بدون إضافة أو يُضيفهم إلى "نا" المتكلم، مما يدلّ على أن له مكانة عظيمة عند ربه جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾، **اللام** لام التعليل، والضمير عائد إلى محمد، وقيل: عائد إلى الفرقان[1]، والجمع بينهما أولى؛ فلا تعارض في ذلك فهما متلازمان، فما كان للقرآن أن يُوجد إلا بمحمدٍ ﷺ، فالحكمة والغرض والغاية من بعثته ﷺ وإنزال الفرقان عليه، هو إنذار الناس جميعاً، لمن كان في حياة النبي ﷺ، ولمن عاش بعده إلى قيام الساعة، فالقرآن نذيرٌ لهم، والعالمين: كل ما سوى الله فهو عالَم، **والمقصود به هنا** عالَم المكلّفين وهم الجن والإنس، ولم يذكر هنا صفة "بشير" مع أن النبي ﷺ قد أُرسل إلى الخلق بشيراً ونذيراً؛ لأن الخطاب للكفار والسياق سياق تهديد ووعيد لهم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ **هذا وصفٌ لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ**، فإنه المالك لما في السموات وما في الأرض، وهو المُسيطر والمتصرف فيهما، وملكُه لهما دليلٌ على غناه وعدم حاجته إلى الخلق، فليس محتاجاً إلى الولد الذي يلزم

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 131).

لتحصيله الزوجة، ولم يشاركه في ملكه أحدٌ من خلقه، بل هو المتفرد في ملك السموات والأرض وما فيهما، وقد أوجد الخلق كله من العدم، وجعل لكل خلقٍ الهيئة المناسِبة له، وجعل لهم أجلاً محدوداً يعيشون فيه.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾، هذا خبرٌ عن حال المشركين، ذكره الله على سبيل التعجب والاستغراب، فكيف يتركون عبادة الله القادر المالك لما في السموات والأرض، المُنفرد بالخلق والإيجاد، ويعبدون غيره من الأصنام العاجزة عن خلق شيءٍ من المخلوقات الضعيفة؟!!، بل هذه الأصنام يصنعها أهلها بأنفسهم، ثم يعبدونها، وقد كان بعض العرب يصنع صَنَمَه من التمر، فإذا جاع أكله! فهي لا تملك أن تدفع عن نفسها ضراً ولا تجلب لها نفعًا، وقدّم ذكر الضر لأن دفعه أهم من جلب النفع، وإذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم(1)، وهي كذلك لا تستطيع أن تميت حيّاً ولا تحيي ميتاً، ولا تستطيع أن تبعث شخصاً بعد موته لتحاسبه على عمله، فهي مصابة بالعجز المطلق، فأنّى لها أن تكون آلهة وهي بهذه الصفات.؟!

وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾، بعد أن ذكر الله كفرهم بالأفعال وهو عبادتهم غير الله، باتخاذ آلهة من الأصنام والأوثان وتركهم عبادة الله العظيم المتفرد بالخلق

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 71).

والإيجاد، عطف عليه كفرهم بالأقوال، **ومنها:** الطعن في القرآن الكريم، وصدق رسول الله ﷺ في تبليغه، حيث زعم بعضهم أن القرآن إفك، **والإفك هو** الكذب المخترع الذي فيه قلب للحقائق، وعبّروا عنه باسم الإشارة تحقيراً له، واتهموا محمداً ﷺ بأنه هو من اختلقه وألّفه، ولم يفعل ذلك وحده بل أعانه عليه قومٌ آخرون لقّنوه بعض ما يقوله، ويقصدون بهم بعضاً من أهل الكتاب ممن أسلم وكانوا يلتقون به، فردّ الله عليهم قولهم هذا ووصفه بالظلم؛ وهو وضع الشيء في غير موضعه، فقد وصفوا النبي ﷺ بالكذّاب المفتري، وهو خلاف ذلك، فهذا من الظلم له، كما وصف قولهم بالزور، وهو تنميق الكلام وتحسينه، وهو في الحقيقة كذبٌ محض، فكذبوا في قولهم هذا وأخرجوه مخرجاً حسناً حتى يُقبَل، وهو باطل قبيح.

وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾، وزعم قومٌ من كفار قريش أن القرآن أخذه رسول الله ﷺ من أساطير وأخبار وقصص الأمم السابقة، وأنه اكتتبها، **أي:** بحث عمن يكتب له هذه الأساطير ويستنسخها له؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب، فهي تُقرأ عليه في الصباح والمساء ليحفظها ثم يلقيها على الناس.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾، **قل لهم يا محمد:** إن الذي أنزل القرآن هو الله الذي يعلم السر في السموات والأرض، ويعلم سرّي وسرّكم، ويعلم من الكاذب ومن الصادق، وترك التصريح بلفظ الجلالة إلى الوصف لفائدة عظيمة، وهي أن الله لا يغيب

عن علمه شيءٌ في هذا الكون، **وذيّل الآية باسميه** (الغفور الرحيم)؛ لترغيب الكفار في التوبة والعودة إليه مهما صدر منهم من كفر وجحود، فالله غفور رحيم، ومن رحمته بهم أنه لم يعاجلهم بالعقوبة على هذا الافتراء والكذب العظيم في حق نبيّه ﷺ، بل منحهم سنّة الإمهال لعلّهم أن يتوبوا ويقلعوا عن ذلك.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾، ثم انتقل إلى ذكر طعنهم في رسول الله ﷺ، واعتراضهم على طريقة حياته بينهم، والاستفهام تعجبي يفيد بطلان كونه رسولاً، لأنه يعيش معهم بهذه الكيفية، **والمعنى:** لو كنت رسولاً حقّاً لما كنت مثلنا تأكل الطعام وتخرج إلى السوق لطلب الرزق، وخصّوا أكل الطعام والمشي في الأسواق لأنهما من الأحوال المشاهدة المتكررة[1]، ثم اقترحوا وجود أشياء تؤيّد رسالته، **ومنها:** لو كنت رسولاً حقّاً لأنزل الله معك ملَكاً يُصدّقك في قولك وإنذارك لنا، **ومنها:** ولو كنت رسولاً حقّاً لأُلقيَ إليك كنزٌ، وهو المال الكثير الذي يحصل عليه بدون مشقة وتعب، فتستغني به عن الضرب في الأسواق والبحث عن الأرزاق، **ومنها:** ولو كنت رسولاً فعلاً لأعطاك الله جنةً، وهي البستان العظيم المليء بالأشجار المثمرة، فتأكل منها، وخصّوا الجنة بالذكر؛ لأن مكة لا جنات فيها، فوجودها معه في مكة

(1) التحرير والتنوير: (18/ 327).

أمر خارق للعادة، ثم خلصوا إلى القول بأنه ليس رسولاً، لعدم وجود هذه الاقتراحات معه، وإنما هو رجل مصاب بالسحر، وما يقوله من كلام هو أثر من آثار السحر عليه.! وعبّر عنهم بوصف الظلم لبيان حالهم في تعاملهم مع رسول الله ﷺ.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾، انظر يا محمد كيف عدّدوا لك تلك الاقتراحات لتكون رسولاً وفق أهوائهم، وانظر إلى كثرة الاتهامات التي رموك بها، **فمرّةً يقولون:** ساحر، **ومرّةً يقولون:** شاعر، **ومرّةً يقولون:** كاهن، **ومرّةً يقولون:** كذاب، ونحوها، وهي دليل على كثرة تخبطهم، فسبّب لهم ذلك الوقوع في الضلال، ولو بحثوا عن الحقائق بصدقٍ لدلتهم على طريق الهداية، ولكن لكثرة ادعاءاتهم عليك واتهاماتهم لك زاغت قلوبهم عن الحق وابتعدت عن معرفته، فلا يستطيعون الوصول إليه؛ لأنهم لم يسلكوا الطريق الصحيح للوصول إليه، بل زاغوا عنه، فأزاغ الله قلوبهم، و﴿كَيْفَ﴾، ليست هنا استفهامية حتى تحتاج إلى جواب، وإنما هي تعجبية، **أي:** انظر وتعجب من تناقضهم وسفاهة عقولهم وضلالهم عن معرفة الطريق الأمثل للوصول إلى الحق.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعقيباً على ما سبق من اقتراحاتهم: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝١٠﴾، تعاظم خيره الذي لو أراد لأعطاك خيراً وأفضل من كل اقتراحاتهم السابقة، بحيث يعطيك في الدنيا جنات متعددة تجري من تحت أشجارها الأنهار المتعددة،

ويمنحك القصور وهي البيوت العظيمة المبنية من الأحجار ونحوها، ولكن حكمة الله اقتضت عدم البسط والتوسعة للرسول ﷺ في نعم هذه الدنيا، ولكن المشركين لا يدركون هذه الحكمة لجهلهم بها، فإن الله تعالى قد خيّر رسوله ﷺ بين المُلك والعبودية، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، لا مِلكًا رسولاً[1]، واقتصر على ذكر الجنات والقصور لندرتها في مكة، فقد كانت أغلب مساكنهم من الخيام وبيوت الشعر.

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾، "بل" تفيد الإضراب وإبطال ما سبق ذكره من أسباب لعدم إيمانهم، وإثبات أن كفرهم كان بسبب أنهم لا يُؤمنون بالساعة وينكرون البعث والنشور، وهي عقيدة متجذّرة في قلوب المشركين، ومن كذّب بالساعة منهم فقد أعد له جهنم التي نارها ذات سعير ومشتعلة لا تنطفئ أبداً، ثم وصف حال جهنم حين ترى المكذبين بها يساقون إليها من بعيد، **والتغيظ** شدة الغضب، وهو الصوت الذي يصدر منها بسبب شدة غليانها، والزفير هو امتداد النفس من شدة الغيظ وضيق الصدر، **وأصل الزفير** هو أول نهيق الحمار[2]، وهو الصوت الذي يُصدره الحمار إذا قُدّم له الشعير فرحًا به، وهو تشبيه بليغ، فمن شدة غضبها عليهم واشتياقها إلى التهامهم؛ يصدر منها ذلك الصوت الذي يشبه صوت الحمار المشتاق إلى طعامه!!.

(1) ينظر الحديث في: مسند أحمد: (12/ 76)، برقم: (7160)، وإسناده صحيح.

(2) تاج العروس: (11/ 435).

وقوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾، وإذا رمتهم الملائكة في النار، فإن أهل النار لا يدخلون النار برغبتهم، بل يهربون منها فتأخذهم الملائكة بقوة، **كما قال:** ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[الرحمن:41]، والنواصي مقدمة الشعر، والأقدام أطراف الأرجل، ويرمونهم في جهنم في مكان ضيّق منها، زيادة في الشدة والبلاء لهم، **بمعنى أن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل أهل النار في زنازين خاصة تضيق بها أجسادُهم كما يفعل بأهل السجون في الدنيا لمزيد من إصابتهم بالعذاب النفسي، وهم مُقيّدون بالسلاسل، فتُربط أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم بالسلاسل ثم يُقذفون في هذا المكان الضيّق، فمن شدة العذاب فيه يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك والحسرة، فتُجيبُهم الملائكة من خزنة جهنم، لا تكتفوا بدعاء ثبور واحد، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك وأعظم، وادعوا ثبوراً كثيراً، وذلك على سبيل التبكيت والتقريع لهم، والمعنى: مهما دعوتم فلن يُستجاب لكم ولن يُلتفت إليكم، بل ستبقون في العذاب أبد الآبدين.

ثم قال: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾، التفت الخطاب إلى رسول الله ﷺ، آمراً له أن يسأل من حوله من المشركين: هل عذاب أهل النار الذي سبق ذكره خير أم جنة الخلد؟ والاستفهام للتهكّم، فلا يوجد مقارنة بين عذاب النار وجنة الخلد، وأُضيفت الجنة إلى الخلد بمعنى أن أهلها خالدون فيها لا يخرجون منها، والمتقون هم عباد الله المؤمنون الصادقون

في تقواهم، قد وعدهم الله بأن تكون الجنة ثوابـًا لأعمالهم الصالحة في الدنيا، ومكانـًا يستقرون فيه في الآخرة، ولهم في الجنة كل ما يطلبون وتشتهيه أنفسهم، وهم خالدون مخلدون فيها لا يخرجون منها، فأثبت الله لهم مطلق العطاء مع مطلق البقاء، وهذا الوعد الذي وعد الله به أهل الجنة حقٌّ سيكون دون تخلف فليترقبوا حصوله، أو أن المؤمنين والملائكة يسألون الله في الآخرة تحقيق ذلك الوعد، فيستجيب لهم[1].

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - منزلة الرسول ﷺ عند ربه، فقد شرّفه بالعبودية ووصفه بها في مواطن التشريف وهي أعلى مراتب ومنازل البشر.

2 - بيان افتراءات كفار قريش على نبيّنا محمد ﷺ وعلى القرآن الذي جاء به.

3 - أن الرسالة لا تستلزم انتفاء البشرية عن الرسول، بل كونه من البشر أبلغ في تحقيق الحكمة من إرساله.

4- بيان تواضع النبي ﷺ، في خروجه إلى الأسواق وطلبه للرزق كغيره من البشر.

5 - بيان شدة عذاب جهنم على الكفار، وأنه لا مقارنة بين حالهم وحال أهل الجنة.

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1261).

تفسير المقطع الثاني من سورة الفرقان

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ
هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ (١٧) قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن
مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا (١٨) فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ
فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا (١٩) وَمَآ
أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ
وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا (٢٠) ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا
يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا
كَبِيرٗا (٢١) يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا (٢٢) وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا
عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا (٢٣) أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا
(٢٤) وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا
عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا (٢٦) وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا
(٢٧) يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا (٢٨) لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا (٢٩) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا (٣٠)
وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا (٣١)﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾، واذكرْ يا محمد للمشركين يوم القيامة حين يحشرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، كعيسى والملائكة وعزير وغيرهم، فيسأل الآلهة فيقول: هل طلبتم من الخلق ترك التوحيد والوقوع في الشرك بدعوتهم إلى عبادة غير الله، أم ضلالهم كان ناتجًا عن انحرافهم وفسادهم دون دعوة ولا أمر منكم؟! فيجيبون بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ **أي:** نُنزّهك ونُقدّسك يا الله أن نقول مثل هذا القول أو ندعوهم إلى مثل هذا الفعل القبيح، فما يصح ولا يصلح لا عقلاً ولا شرعًا أن نتخذ وليّا ولا محبوبًا ولا إلهًا نعبده غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه، بل كانت عبوديتهم وشركهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صادرة من ذات أنفسهم بسبب أنك أسبغت عليهم وعلى آبائهم من قبلهم بالنعم الكثيرة التي انشغلوا بها عن معرفة الحق والهدى، وكان شركهم ناتجًا عن غفلتهم عن الآخرة وانشغالهم بمتاع الدنيا الزائل، كما أن هؤلاء القوم قد وُجد فيهم مقتضى الفساد في أنفسهم بسبب تعطيل عقولهم عن التدبر والتأمل فيما خلق الله من وسائل توصلهم إلى الهداية، فانحرافهم كان بسبب وجود الفساد في قلوبهم، فلم يُوجد فيها محلٌ للصلاح حتى يتأثروا بهدي القرآن ودعوة الرسل، **فالبوار:** هو عدم وجود قابلية للصلاح، مأخوذ من أرض

بائرة، إذا كانت غير صالحة للزراعة[1]، وهكذا كانت قلوبهم ونفوسهم قد بلغت في القبح مبلغًا كبيراً.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾، الخطاب للمشركين، فقد كذّبكم الشركاء الذين زعمتم أنهم أمروكم بعبادة غير الله، فالآن لا تستطيعون أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب ولا تستطيعون النجاة من الوقوع فيه، فمن وقع منكم في الشرك ولم يتُب منه فإن مصيره إلى العذاب الكبير في جهنم، والعياذ بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾، الخطاب لمحمدٍ ﷺ، يخبره بأنه ليس أول رسولٍ إلى الخلق، وليس أول من يمتهن التجارة والزراعة وطلب الرزق، فهكذا كان الأنبياء والرسل من قبله كلهم يأكلون الطعام كغيرهم من البشر، ويطلبون الرزق بالضرب في الأسواق بيعًا وشراءً وصناعةً وزراعةً، كما تفعل أنت، فهذا حال المرسلين من قبلك، ومن سنّة الله في الخلق أن خلقهم مختلفي الأحوال والصفات؛ فجعل بعضهم غنيًا وجعل بعضهم فقيراً، وجعل بعضهم صحيحًا وجعل بعضهم مريضًا، وجعل هذا الاختلاف امتحانًا وابتلاءً للخلق، لينظر هل يصبر الفقير على فقره؟ وهل يشكر الغني على غناه؟، ومن ذلك جعل

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 79).

محمداً ﷺ عبداً رسولاً، وجعله محل ابتلاءٍ واختبارٍ لقومه هل يتبعونه أم لا، وكان الله بأحوال خلقه بصيراً لا يخفى عليه شيء منهم، وهذا وإن كان أسلوبه الخبر إلا أنه يُفيد معنى التهديد والوعيد، **ومعناه:** إن صبرتم جازاكم على صبركم، وإن كفرتم جازاكم على كفركم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾، يخبر الله عن كفار قريش الذين كفروا بمحمد ﷺ وكذّبوا بالبعث والنشور، بأنهم اقترحوا على الله أن ينزل عليهم رسولاً من الملائكة؛ لكي يؤمنوا به، وهو اقتراح باطل، لا تحقق به الحكمة من إرسال الرسل من البشر، وهي الاقتداء والتأسّي بهم، فإن الإنسان لا يُمكن أن يقتدي ويتأسّى بمَلَكٍ لا يراه ولا ينظر إليه، كذلك المَلَكُ معصوم من الخطأ، والإنسان غير معصوم من الخطأ، فيصعب عليه التأسّي به، ويحتمل أنهم طلبوا أن تنزل عليهم الملائكة فيرونها عياناً، فتخبرهم أن محمداً رسول الله[1]، ثم إنهم تجاوزا الأدب مع الله فاقترحوا عليه أن يتجلّى لهم حتى يروه، **ويقول لهم:** أنا الله وقد أرسلت محمداً رسولاً إليكم فصدّقوه، وهو اقتراح يدل على جهلهم بالله، ويبيّن مدى الكِبر الذي قد بلغ في نفوسهم منتهاه، فالسين والتاء تُفيد المبالغة، **والعتو:** أشد الكفر وأفحش الظلم، وعتوهم هو طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به[2]، فقد

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 139).

(2) اللباب في علوم الكتاب: (14/ 507).

رأوا أنفسهم في مكانة عالية تستحق أن ترى الله جهرة في الدنيا، فرد الله عليهم بطلان هذه الاقتراحات، وأن تحققها سبب لهلاكهم، فرؤية الكافر للملائكة ليست ممدوحة بل هي نذير شؤم وعذاب عليه، **ويراها في ثلاثة مواطن: عند الموت**؛ فيرى ملائكة العذاب فتخاف نفسه وتتفرق في جسده، **وفي القبر**؛ حين يرى مُنكراً ونكيراً بصورةٍ شديدةٍ مُفزعة، **ويوم البعث**؛ فيرى الملائكة وهي صفوف حول الخلق بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تحرس الخلق وتمنعهم من الهرب، وفي هذه الثلاثة الأحوال سيرى الكفار ما لم يكونوا يتوقعونه من الخوف والفزع والتهديد والوعيد بسبب كفرهم وإجرامهم في الدنيا، **وتقول لهم الملائكة**: لا بُشرى لكم، وأنتم ممنوعون من رحمة الله، وحرام عليكم دخول الجنة[1]، **وقيل**: إن القائل هم الكفار أنفسهم حين يرون الملائكة فيُفزعون **ويقولون**: حجراً محجوراً، وهو لفظٌ تقوله العرب إذا نزلت بهم مصيبة أو تفاجأوا بمُعضلة، **ومعناه**: حرامٌ عليك التعرّض لي[2]، والأول هو الراجح، وهو قول جمهور المفسرين.

وقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾، يخبر الله سبحانه عن مصير أعمال الكفار الصالحة في الآخرة، حيث يقصد الله تعالى إلى ما عمله الكفار من عملٍ حسنٍ في الدنيا مثل الإحسان إلى الناس والإطعام للفقراء وكفالة الأيتام، والأعمال الإنسانية الإغاثية التي تشاهدون بعض الكفار

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (13/ 20).

(2) ينظر: المصدر السابق: (13/ 21).

يشتغلون فيها، فيُقيمون جمعيات ومؤسسات خيرية، ويعملون مشاريع إغاثية وإنسانية هنا وهناك، فأجرها وثوابُها يتحوّل يوم القيامة إلى هباء، وهو ذرّات الغبار التي تراها في شعاع الشمس عند دخوله من فتحة في السقف إلى الداخل[1]، **والمعنى**: أن تلك الأعمال لا فائدة منها ولا قيمة لها عند الله في الآخرة، وإن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله وعملوها لغير الله، وقد حصلوا على أجرهم منها في الدنيا بالسمعة الحسنة وانشراح صدورهم بسبب فعلهم للخير والإحسان إلى الخلق.

ثم قال سبحانه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾، بعد ذكره لحال المجرمين في الآخرة، ذكر حال المؤمنين فيها؛ لبيان الفرق بينهما للسامعين، فكل مؤمن تقي فهو من أهل الجنة الملازمين لها، وهي خير مُستَقَر لهم، والمُستقر هو المكان الذي يستقر فيه الإنسان، والمقيل المقام وقت القائلة، وهو نصف النهار، وقد استدل بعض السلف أن أهل الجنة أول ما يدخلون الجنة عند زوال الشمس، من الصباح إلى زوال الشمس يُحاسبون في مدة نصف يوم، ثم يُؤمر بهم فيدخلون الجنة فيرتاحون في فترة القيلولة مع أزواجهم في قصورهم[2]، **ولفظ**: "خير" و"أحسن" ليست على بابها في التفضيل؛ لأنه لا وجه للمقارنة بين حال أهل النار وحال أهل الجنة، وإنما المقصود بها هنا كمال وتمام الشيء الذي منحه الله لأهل الجنة.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 64).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 258).

ثم قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾، واذكر يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب، حين تشقق السماء، أي: تتشقق، وحُذفت التاء تخفيفًا، فيخرج منها الغمام وهو نورٌ يتلألأ على شكل سُحب بيضاء، وتصير السماء أبوابًا فتنزل منها الملائكة التي كانت تسكن فيها، فتنزل ملائكة السماء الأولى وتكون صفًا في المحشر، ثم ملائكة السماء الثانية وتكون صفًا ثانيًا، وهكذا حتى تكون سبعة صفوف، ثم ينزل حملة العرش[1]، وهم من أعظم الملائكة خلقًا، **وقد جاء في الحديث وصف الواحد منهم: "أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام"**[2]، وأكّد الفعل بالمصدر ليذهب عنه المجاز وأن النزول حقيقي، فيقضي الله بين العباد فهو المالك المتفرد بملكهم ولا ملك غيره، وأتى باسم الله الرحمن هنا؛ لأن الموقف عسيرٌ وشديد فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يشعر المؤمنين بأن رحمته لهم تسبق غضبه، فترتاح نفوسهم ويطمعون في رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويكون هذا اليوم عسيراً وشديداً على الكافرين، ويُستفاد من هذا التخصيص خفته ويسره على المؤمنين، وفي ذلك تنبيه للناس أن يستعدوا للخروج من عُسر ذلك اليوم بالإيمان والعمل الصالح والتوبة الصادقة، فإن الكرب فيه شديد والفزع عظيم.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (16/ 468).

(2) سنن أبي داود: (4/ 232)، برقم: (4727)، وإسناده صحيح.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾، واذكر يوم القيامة حين يعضّ الكافر على أصابع يديه من شدة قهره وندامته وحسرته على ما فرّط في جنب الله في الدنيا، ويقول وهو يعضّ على يديه: يا ليتني استجبت لدعوة الرسل وسرت في طريقهم وآمنت بهم، وهو تمنٍ لا فائدة منه فقد ذهب وقتُه، فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل، **ثم يقول:** يا حسرتي احضري، فهذا وقت حضورك، ثم يتمنى أنه لم يطع الشيطان[1]، **وقيل:** هو كل من يُضلّ الإنسان من شياطين الإنس أو الجن[2]، وهو أرجح، فيتمنى أنه لم يتخذه صديقاً مقرّباً، ثم يعلّل ذلك أنه قد أبعده عن الإيمان والاستقامة وسماع القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، بعد أن علم به وأغواه بوسوسته وتزيينه الباطل له حتى أوقعه في الانحراف والفساد، وكان الشيطان لكل من اتبعه وأطاعه من الإنس خذولاً يزيّن له الباطل ويقبّح له الحق، ويعده الأماني ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه في الآخرة، وفي هذا تنبيه للعبد لاختيار أصدقائه ومعرفة صفات من يصاحب، هل هم من الصالحين أم من الفاسدين، حتى لا يندم في وقت لا ينفعه الندم.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾، **المقصود بالرسول**

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 143).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:582).

هنا محمدٌ ﷺ، وهل كان هذا القول منه في الدنيا أم في الآخرة[1]: يحتمل أن الرسول ﷺ اشتكى إلى ربه في الدنيا من كفار قريش الذين لم يُؤمنوا بالقرآن وهجروا اتباعه وابتعدوا عنه، **وقالوا عنه:** كاهن، وساحر، ونحوها، ويحتمل أن الرسول ﷺ يقول ذلك في الآخرة حينما يبعث الله تعالى كلَ رسولٍ ليشهد على قومه، فيشتكي الرسولُ إلى ربه أن قومَه الذين ماتوا على الكفر كذبوه ورفضوا الإيمان بالقرآن الذي جاء به، والقول الأول أرجح، لأن السياق والآية التي بعده تدل عليه، وكما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك هجروا القرآن وكذبوا بك؛ جعلنا لكل نبيٍ عدوّاً من كفار قومه المجرمين يكذبون به ويعرضون عن الإيمان به، والمعنى: لست أول من يُكذبه قومه، فقد سبقك رسل كذّبهم أقوامُهم، فهذه سنّة الله في رسله وأنبيائه، أن يُوجد في قومهم من يؤمن بهم، ويوجد مجرمون يعادونهم، ولكن العاقبة والنصر والتمكين للرسل ومن آمن بهم، وفي ذلك تسلية له، فاطمئن، فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو حسبك وكافيك، فهو الذي يهدي من يشاء من الخلق إلى الإيمان بك، وسوف ينصرك على المكذبين بك، وقد حقق الله له ذلك فآمن الناس ودخلوا في دين الله أفواجًا، ونصره على أعدائه المكذبين به.

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 319).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- الحذر من الاشتغال بالدنيا ولذائذها فهو أحد أسباب نسيان الآخرة.

2- بيان الحكمة من إرسال الرسل من البشر لكي يقتدوا بهم كونهم من جنسهم.

3- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الخلق متفاوتين في النعم ابتلاءً واختباراً لهم.

4- أن الكفر مانع من قبول الأعمال الصالحة في الآخرة والثواب عليها.

5- بيان خطر صديق السوء، وندامة صاحبه يوم القيامة على ذلك.

6- بيان خطر وضرر هجر القرآن، سواءً كان بعدم الإيمان به وهو أعظمها، أو بترك التحاكم إليه، أو ترك تلاوته، أو ترك تدبره والاستشفاء به، ونحوها.

تفسير المقطع الثالث من سورة الفرقان

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ
وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ
وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿٣٨﴾
وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ
ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا
عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ
هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ
إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾، سبق ذكر بعض مقترحات كفار قريش لمحمد ﷺ، وهي دليل على عنادهم وتكذيبهم برسالته، وهذا من ضمن اقتراحاتهم، فإنهم اعترضوا على نزول

القرآن عليه مفرّقـًا، وكان الأولى على وفق مقترحهم أن ينزل عليه دفعةً واحدةً، كما أُنزلت التوراة والإنجيل والزبور، وهذا من المعلومات التي أخذوها عن أهل الكتاب، **وأخبرنا الله بذلك كما في قوله:** ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾[الأعراف:142]، فاستكمل أخذ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ للتوراة في أربعين ليلة متتالية، فرد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليهم هذا الاقتراح وأبطله، وهو أعلم وأحكم بما يفعل سبحانه، ببيان الحكمة من إنزال القرآن مفرّقـًا، **ومن ذلك:** تثبيت فؤاد النبي ﷺ بحفظ القرآن فيه فلا ينساه، لأن حفظ القليل المفرّق أقوى من حفظ الكثير المجموع، ويدخل في معنى التثبيت أيضـًا أن استمرار نزول جبريل على محمد ﷺ بالوحي بين الحين والآخر عامل من عوامل تثبيته وتقوية قلبه ليتحمل تكذيب قومه له، ومن الفوائد أيضـًا أن الله نزّله عليك شيئـًا فشيئـًا من أجل أن يكتمل حفظه في صدرك، وقيل: بيّناه لك تبييناً[1]، ولا مانع منهما معـًا، فالترتيل في اللغة التمهّل في الكلام وفصل بعضه من بعض[2]، ومع نزول الآيات المتتابع ينزل جبريل إليك فتأنس به وتزداد ثباتـًا واستمراراً على ما أنت عليه، **ومن الفوائد:** أن لا يسألك المشركون سؤالاً ولا يضربوا لك مثالاً تعجيزيـًا إلا جاءك القرآن بالجواب عليه وحل الإشكال في وقته بأحسن بيان وأصدق تفسير، فلا يوجد بيانٌ أحسن من بيان الله ولا توضيح للمعاني ولا حل للإشكالات مثل ما يأتي تفسيره وبيانه في القرآن

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 86).

(2) ينظر: العين: (8/ 113).

الكريم، وفي هذا إشارة إلى بعض آيات القرآن الكريم التي لها أسباب نزول، فإن جُلّ القرآن الكريم نزل بدون سبب.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾، ثم بيّن حال عموم الكفار في الآخرة، ومن ضمنهم المنتقدون لرسول الله ﷺ والمعارضون لدعوته، فسياق الآية يشير إليهم، فيحشرهم الله يوم القيامة يمشون على وجوههم، وهذا من احتقارهم لكبرهم وغطرستهم في الدنيا، **وقد استشكل ذلك بعض السامعين فقال له رسول الله ﷺ**: **"إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك"**[(1)]، **ويحتمل** أن الملائكة تسحبهم على وجوههم ثم تلقيهم في النار، ولا مانع من اجتماع الأمرين في حقهم، **واستخدم لام البُعد** في اسم الإشارة العائد إليهم؛ إشارة إلى بُعْدِ مكانتهم عن الله وشدة احتقاره لهم، فمصيرهم إلى شر الأماكن، فلا يوجد مكانٌ أكثر شراً منه، وهو النار، لأنهم كانوا أبعد سبيلاً عن الحق في الدنيا، فأبعدهم الله في الآخرة عن القُرب من مكان أهل الحق؛ فالحق في الدنيا قِيمٌ ومبادئ وأعمال يسعى إليها الإنسان ويسلكها، والحق في الآخرة ثواب وجزاء وأجور ينالها، فمن ابتعد عن مبدأ الحق في الدنيا؛ أبعده الله عن أجره وثوابه في الآخرة.!

ثم قال: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥﴾،

---

(1) مسند أحمد: (14/ 288)، برقم: (8647)، وسنن الترمذي: (5/ 252)، برقم: (3290)، وإسناده حسن لغيره.

ثم جاء الحديث عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبعض الأنبياء مع أقوامهم بعد الحديث عن اقتراحات ومعارضات قريش لمحمد ﷺ، من باب التأنيس والتسلية له، فالله قد أعطى موسى الكتاب وهو التوراة وصيّر معه أخاه هارون معيناً له؛ استجابةً لدعاء موسى بذلك، **كما قال**: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾﴾[طه:29-32]، فكان هارون نبيّاً ومُعيناً ومساعداً له في دعوة فرعون وإنقاذ بني إسرائيل من بطشه وظلمه.

وقوله: ﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾﴾، أمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى القوم الذين كذّبوا بالمعجزات الحسّية التي أرسل الله بها موسى إليهم، وهم فرعون وقومه، لدعوتهم فلما استمروا في التكذيب أهلكهم بسبب ذلك، فكان عاقبة تكذيبهم هو هلاكهم بإغراقه وجنوده في البحر فانتهى ملكه وذهب سلطانه.!

وقوله: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾﴾ واذكر قوم نوح حين كذبوا نوحاً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وجعلهم مكذبين للرسل كلهم؛ لأن تكذيب رسول واحد هو تكذيب لجميع الرسل، فجعل عاقبة تكذيبهم هو الغرق بالطوفان، وصيّر هلاكهم علامة دالة على قدرة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على أخذ واستئصال الظالمين، وأن إهلاكهم بالعذاب في الدنيا لا يعفيهم من العقوبة في الآخرة، فما ينتظرهم في الآخرة هو العذاب الأليم في جهنم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والتكذيب.

وقوله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿٣٨﴾﴾، واذكر عاداً،

وهم قوم هود، وثمود، وهم قوم صالح، وأصحاب الرس، **والرَّسُّ** هي البئر المحفورة بالأرض ولكنها غير مطوية بالأحجار[1]، **وقد اختلف المفسرون في تعيين من هم أصحاب الرس**[2]، **فقيل**: إنهم أصحاب حنظلة بن صفوان، **وقيل**: إنهم أصحاب القرية التي في سورة ياسين، **وقيل**: أنهم بقايا من قوم ثمود كانوا في جزيرة العرب، **وقيل**: غير ذلك، ولم يرد دليل صحيح في القرآن أو السُنّة على التعيين، ويكفي أنهم قومٌ أهلكهم الله بسبب كفرهم، ونُسبوا إلى البئر لأنهم كانوا يسكنون حوله ومشهورون به، واذكر أقوامًا آخرين بين هؤلاء الأقوام دمرهم الله بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم برسله، عددهم كثير لا يُحصى.

ثم قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾، وكل هذه الأمم التي أهلكناها وسميناها لكم أو لم نسمها لكم قد أعذر الله إليهم بالحجج والبراهين، وضرب لهم الأمثال ونبههم إلى خطورة الكفر وعاقبته الوخيمة، فلم يستفيدوا من ذلك، بل أعرضوا عن كل الحجج والبراهين واستمروا في الكفر والتكذيب، فكان هلاكُهم عدلاً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **والتتبير**: التدمير والهلاك[3]، فأهلكهم الله جميعًا إهلاكًا شديداً لكفرهم وعنادهم.

ثم قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾، **الخطاب لكفار قريش**، فقد كانوا يُسافرون إلى

(1) ينظر: أساس البلاغة: (1/ 352).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 269)، وزاد المسير في علم التفسير: (3/ 321).

(3) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 68).

الشام فيمرون على قرية قوم لوط، **وهي قرية** سدوم، ومطر السوء هو إهلاكهم بإنزال حجارة من سجيل عليهم من السماء، وقلب الله عاليها سافلها، والاستفهام إنكاري، فقد كانوا يرون آثار تدمير الله لها بسبب كفرهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلم يعتبروا بذلك، بل كانوا يرونها ولكن سبب عدم اعتبارهم بها؛ كفرهم بالآخرة، وإنكارهم للبعث والنشور، فإن الذي لا يؤمن بالآخرة لا يتّعظ بالآيات ولو رآها، ولا يرجو ثواب عمل خير بعد البعث، فلذا يقع في الكفر والمعصية.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾، وإذا رأى المشركون محمداً ﷺ وهم في مجالسهم ومنتدياتهم استهزأوا به، والتعبير بصيغة الحصر بـ "إن" النافية و"إلا" للتشنيع عليهم بانحصار تعاملهم معه في ملازمة الاستهزاء به ولا يخلطون معه شيئًا من تذكّر أقواله ودعوته والاستفادة منها[1]!، **والاستفهام** تعجبي إنكاري، **وذكر الرسول باسم الإشارة** دون ذكر اسمه، إشارة إلى احتقارهم له واستنقاصهم لشأنه، **والمعنى**: ما وجد الله إلا هذا الإنسان الفقير يرسله رسولاً إلينا؟!.

وقوله: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، ثم تحدّث المشركون مع بعضهم عن خوفهم من تأثير دعوة محمد ﷺ عليهم، **قائلين**: رغم أن محمداً شخصٌ مُحتقَر عندنا ولا نُلقي له بالاً إلا أنه أوشك أن يُضلّنا عن عبادة الأصنام، وكاد

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 32).

بعضنا أن يترك عبادتها ويؤمن بما جاء به، لولا تحلينا بالصبر عليها والدفاع عنها والتمسك بها، وفي الآية إشارة إلى ضعف عقولهم وسخافة تفكيرهم الذي جعلهم يتمسكون بهذه الخزعبلات ويصبرون على عبادة أصنام صنعوها بأيديهم!، فرد الله عليهم هذا السخف بالتهديد والوعيد لهم، وأنهم سيعلمون حين تقوم الساعة ويرون جهنم المُعدة لعذاب الكافرين من هو الضال المنحرف، الذي يستحق العذاب الأليم، ومن هو صاحب الحق والهدى الذي يفوز بجنات النعيم، هم أم محمد ﷺ ومن آمن به؟!.

ثم قال الله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾، انظر يا محمد وتعجب في حال من أطاع هواه كطاعة الإله[1]، فلا تهوى نفسه شيئاً إلا اتبعه، وترك الحق ولو كان واضحاً، فمن حصل منه ذلك فقد فسدت فطرته، وانحرف عن الحق انحرافاً كبيراً، فلا تستطيع يا محمد أن تُنقذه من هذا الانحراف مهما بذلت له من نصح وإرشاد؛ لأن الضلال واتباع الهوى قد سيطر على قلبه، أفأنت تكون عليه حفيظاً حتى تدخل الإيمان إلى قلبه؟!، **والاستفهام** للإنكار والاستبعاد، فإن الله لم يرسلك حفيظاً عليهم، بل جعل مهمتك معهم هي هداية الإرشاد والبيان والنصح، أما هداية التوفيق فهي بيد الله وحده، **كما قال:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:56].

وقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 90).

﴿أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾، تحسبُ من الحُسبان، والاستفهام للإنكار، **والمعنى**: هل تظن يا محمد أن أكثر المشركين من قومك يسمعون ما تقوله لهم سماع استفادة، وهل تظن أنهم يفهمون ما يسمعون، فيميزون الهدى من الضلالة؟!، وإنما نفى عن أكثرهم دون جميعهم فهْم الأدلة السمعية والعقلية؛ لأن هذا حال دهمائهم ومقلديهم، وفيهم معشر عقلاء يسمعون ويفهمون، ولكنهم غلب على بعضهم حب الرئاسة والكبر، فمنعهم من اتباع محمد ﷺ أن يكونوا متساوين مع المؤمنين الضعفاء من أصحابه[1]، **وبعضهم** قد يسمع سماع استفادة فيهديه الله، كحال مَن منَّ الله عليهم بالإيمان من أهل مكة، ثم بيّن حال من لم يستفد منهم من سمعه وعقله في معرفة الحق بأنهم يشبهون الأنعام، **ووجه الشبه بينهم وبين الأنعام**؛ أن الأنعام تسمع الصوت ولكن لا تفهم المحتوى، ولكن المشركين أشد ضلال من الأنعام؛ لأنها غير مُكلّفة ولا مطلوب منها الإيمان والعمل الصالح، ولأنها تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها، وهؤلاء المشركون لا يفقهون شيئًا من أصوات من يدعوهم ويرشدهم إلى الله، ولأن الأنعام تنظر ما ينفعها فتفعله، وما يضرها فتتركه، والكافر ينظر ما ينفعه فيتركه وما يضره فيفعله، فصار الضلال عند الكافر أشد من ضلال الأنعام، **وفي الحديث**: **"إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها"**[2]،

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 37).

(2) صحيح البخاري: (8/ 102)، برقم: (6483).

فالأنبياء أُرسلوا لإنقاذ البشرية من النار، ودعوتهم إلى الهداية ودخول الجنة والكافر يأبى إلا أن يُلقيَ بنفسه في النار، وشبّههم بالأنعام؛ لأنها أكثر اختلاطًا بالناس من غيرها من الحيوانات.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان الحِكم من تنزيل القرآن مفرّقًا، ومنها: تثبيت الحفظ، وتثبيت فؤاده، والإجابة على الأسئلة.

2- بيان أن الكفر والتكذيب هو سبب هلاك الأمم.

3- بيان أن السخرية والاستهزاء بالصالحين في كل زمان ومكان من طبيعة أهل الشرك والضلال.

4- بيان أن الاستهزاء بالمناظر والهيئات الحسنة دليل على فساد الفطرة.

5- بيان خطر اتباع الهوى، وأن الإنسان إذا جرى وراء أهوائه تحوّل الهوى إلى إلهٍ يُعبد ويطاع من دون الله.

6- بيان انحطاط الكافر الذي لا يستخدم عقله وسمعه وبصره في معرفة الحق والصواب، وأنه أضل من الأنعام؛ لأنها تستفيد من هذه الحواس فيما ينفعها وتبتعد عما يضرها.

تفسير المقطع الرابع من سورة الفرقان

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾
ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ
ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾
فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا
عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا
فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ
ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ
وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا
ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾، هذه الآية من الأدلة على قدرة الله جَلَّ وَعَلَا في تدبير شؤون الكون، **وقد ذكرها الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا رداً على

المشركين الذين كانوا يُنكرون ألوهية الله جَلَّ وَعَلَا ويُكذبون رسوله، والخطاب لرسول الله ﷺ ولمن يصلح له الآن، والسؤال سؤال تعجبي تقريري لا يحتاج إلى جواب، والرؤية بصرية، ويجوز أن تكون قلبية بمعنى العلم[1]، فإن الإنسان إذا رأى تكوين الظل وهو الفيء، وتأمل فيه رأى فيه دليلاً على قدرة الله، **و(كيف) هنا** ليس المقصود بها السؤال، وإنما بيان كيفية مدّ الظل، **والمقصود** بمده انتشاره وبسطه في فترة ما بعد الفجر إلى شروق الشمس، فإن هذا الوقت هو وقت امتداد الظل، فإذا بدأت الشمس تُشرق بدأ الظل ينسحب شيئًا فشيئًا، ولو شاء الله لجعله ثابتًا مستقرّاً دائمًا لا تنسخه الشمس، وفي هذا إشارة إلى قدرة الله، فإنه هو الذي يُوجد الأشياء ويُحركها، و"ثم" حرف عطف يفيد التراخي، لأن الظل ينزاح تدريجيًا بشروق الشمس، المرشد إلى الطريق والهادي إليه[2]، **أي**: جعلناها علامة يستدل بأحوالها على أحواله، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق[3]، **والقبض** ضد المد، فالذي بسط الظل ونشره؛ هو الذي يقبضه ويُنقصه بالتدريج بسبب حركة الشمس عليه، فالظل لا يزول كله فجأة، وهذا فيه إشارة إلى آية من آيات الله وهي حركة الشمس، فإنه لولا حركة الشمس لما تكوّن الظل، وحركة الشمس فيها دلائل وبراهين على قدرة الله وعظمته، وفيها فوائد عظيمة للإنسان والحيوان والنبات، ولها أثرٌ في تغيّر المناخ والجو، إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تُعدّ، وفي الآية تشبيه للهداية بنور الشمس، وتقلص

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 92).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 42).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 92).

ضلال الكفر بانقباض الظل بعد أن كان مديداً قبل طلوع الشمس[1]، وفي ذلك بشارة بزوال الكفر من مكة وما حولها وظهور نور الإيمان فيها.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾، وهذه آية أخرى، من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته، فقد صيّر لعموم المكلفين الليل لباسًا وهو الستر والغطاء، فإن الليل إذا أقبل بظلامه غطى الناس وسترهم، **وصيّر النوم** وقتًا للراحة، **والسبات** مأخوذ من السَّبْت، وهو القطع، **وسُمي النوم سباتًا**؛ لأن الأصوات والحركات تنقطع عن النائم، وصيّر النهار وقتًا للانتشار والحركة والعمل، **وفي الآية إشارة** إلى قدرة الله على البعث والنشور، فإن الذي يميت الناس بالنوم ليلاً ويوقظهم نهاراً؛ قادرٌ على أن يبعثهم ويُحييهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾، **المقصود بالرياح** هنا التي تسوق السحاب من مكانٍ إلى مكان، فبسببها يتراكم السحاب ويتكثّف ثم ينزل منه المطر، فحركة الرياح بالسحاب بشارة للناس بنزول المطر، وهو رحمة من الله سبحانه بالخلق، وسُمى المطر ماء طهوراً؛ لأنه طاهر في نفسه مُطهر لغيره، فهو في منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يكدره أو يقذره، واللام للتعليل، **والمراد بالإحياء هنا هو**: إخراج النبات من المكان الذي

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 39).

لا نبات فيه، وهيّأنا الماء للشرب فكل من احتاج للشرب شرب منه[1]، وأَناسي جمع إنسي، وقيل: جمع إنسان[2]، وهو من يُؤنس به، فجعل الماء سببًا لحياة النبات والحيوان.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾، **اختلف المفسرون في عودة الضمير في قوله**: ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾، **على قولين**[3]، **فقيل**: إنه يعود على ماء المطر، **والمعنى**: ولقد أنزلنا المطر ووزّعناه بينهم ليذكروا نعمة الله تعالى عليهم مع نزوله عليهم وفي حالة إمساكه عنهم ويعتبروا بذلك، **وقيل**: إن الضمير يعود على القرآن بناءً على سياق الآية التي بعده، **وهي**: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، **والمعنى**: ولقد بيّنا ونوّعنا في القرآن الحجج والبراهين ليكون لهم هذا القرآن سببًا للاتعاظ والعودة إلى الإيمان والتوبة وترك الكفر والإلحاد، فأبى أكثر الناس إلا أن يكفروا بحجج القرآن وبراهينه، والقول الثاني هو الأرجح.

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾، في هذه الآية تعظيمٌ لشأن النبي ﷺ، حيث جعله نذيراً عامًا للناس أجمعين، ولو أراد لجعله نذيراً خاصًا بأهل مكة وبعث في كل قرية ممن حولها نذيراً منهم، ولكن الله عظّم شأنه وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأنبياء والرسل قبله، وبعثه رحمة للعالمين، **وفي الحديث**: **"أُعطيت خمسًا لم يُعطهن أحدٌ قبلي"**، **وذكر منها**: **"وكان الرسول**

---

(1) ينظر: المصدر السابق: (19/ 48).

(2) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 269).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 149).

يُبعث إلى قومه خاصةً وبُعثت للناس عامة"[1].

وقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾، نهاه عن طاعة الكفار فيما يقترحونه عليه من أمور تتنافى مع قضايا التوحيد والعبادة، وتفسد الدين والأخلاق، ولا تيأس من هدايتهم ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم، وأمره بالاستمرار في جهاد الكفار والمشركين بحجج القرآن وبراهينه العقلية والنقلية، ففيه كل ما يتعلق بمخاطبة العقول والأنفس والمشاعر، بحيث لو استمع إليه المخالف بتمعنٍ وتأملٍ لاستجاب له وآمن به، وهذا الجهاد يحتاج إلى صبر واستمرار، واستخدام الأسلوب المناسب لكي يؤثّر في الناس ويقبلونه.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾، **عاد الحديث مرةً أخرى** للحديث عن دلائل قدرته وعظمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في خلق وتدبير شؤون الكون، ومن ذلك أنّ مياه البحار لا تختلط، مع أنها متصلة، **ومرج في اللغة** تأتي بمعنى الإرسال والتخلية وترك الشيء[2]، **والمقصود بالبحرين** مياه الأنهار والأمطار ومياه البحار، وسُمّيا بحرين على التغليب، **والمعنى:** أرسلهما في مجاريهما وجعلهما متلاصقين ولكن لا يختلطان، فيبقى العذب وحده والمالح وحده، **والعذب الفرات هو:** شديد العذوبة، وهو الهنيء في الشرب، **والأجاج:** شديد الملوحة، وجعل بينهما حاجزاً معنوياً بقدرته، وهي القوانين الإلهية التي تمنع أن يختلط أحدهما بالآخر،

(1) صحيح البخاري: (1/ 74)، برقم: (335).

(2) ينظر: تاج العروس: (6/ 207).

ويبقى كلاهما حافظًا لطعمه عند المصب، وقد أثبت العلم الحديث ذلك[1].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾، وهذا من دلائل قدرته وعظمته سبحانه، والمقصود بالماء هنا هو نطفة المني التي خلق منها أجنّة البشر في الأرحام، وصيّر من الأجنّة ذكراً وأنثى، وجعلهم ذوي نسب؛ وهم الذكور الذين ينسب إليهم، **فيقال:** فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهرٍ؛ وهن الإناث اللاتي يصاهر بهن[2]، فيزوجن من شخص آخر، قد يكون من غير الأسرة، وذيّل الآية بأن من فعل ذلك من الماء المهين، فهو عظيم القدرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾، ومع ما سبق من دلائل على عظيم قدرته واستحقاقه وحده للعبادة إلا أن الكفار تركوا عبادته سبحانه وعبدوا غيره من الأصنام والأوثان، التي إن أطاعوها لا تنفعهم، وإن عصوها لا تضرهم، لأنها جمادات لا تقدر على فعل شيءٍ لنفسها ولا لغيرها، وكان الكافر على معصية ربه معاونًا للشيطان في ذلك، فجعل المشرك في إشراكه بالله مع وضوح دلالة عدم استحقاق الأصنام للألوهية، كأنه ينصر الأصنام على ربه الحق سبحانه[3].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾، **الخطاب للرسول**

(1) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للنابلسي: (2/ 102).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1282).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 57).

ﷺ، وهو وصف لحاله، مبشّر للمؤمنين بالأجور والثواب في الجنة، ونذير للكافرين بالعقوبات والعذاب في النار، وفيها إشارة إلى استمرار تكذيبهم له، وإرشاد له بأن لا يحزن لذلك، فمهمته محصورة في البلاغ المبين.

وقوله: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧﴾، قل يا محمد للمشركين الذي تدعوهم إلى الإيمان بالله: ما أسألكم على دعوتي لكم أجراً، ولا أريد منكم شيئًا، وهذه طبيعة دعوة جميع المرسلين، فقد نقل لنا عن كثير منهم مثل هذا القول؛ لأنهم يعملون مع الله وأجرهم عليه، وقد أرسلهم الله ليبلغوا دينه للناس، فليست الدعوة إلى الله وسيلة لاكتساب المال، كما يفعل ذلك المشعوذون والدجالون وأصحاب السحر والبطالة، والاستثناء في الآية منقطع عند جمهور المفسرين، وإلا بمعنى لكن، **والمعنى:** لا أريد منكم أجراً على دعوتي لكم، ولكن من أراد أن يحصل على الأجر العظيم من الله؛ فليتبع الدعوة، وليشارك في نشرها، ولينفق شيئًا من ماله في نصرتها.!

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾، أمر الله رسوله بالتوكل والاعتماد على الله، فهو الحيّ الذي لا يموت، وفيه إشارة إلى إبطال التوكل على غير الله، فإنّ غير الله مهما كبر وعظم فإنه يموت، **كما قال:** ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦﴾[الرحمن:26]، وأمره بتنزيه الله عن كل ما لا يليق به، وأن يجعل تسبيحه مصحوبًا بالحمد والثناء المطلق على الله؛ لتمام كماله سبحانه، وكفى بالله خبيراً بذنوب خلقه، لا يخفى عليه شيءٌ منها، والخبير العليم بدقائق الأمور وجزئياتها، وفي العبارة معنى التهديد والوعيد والتخويف،

فمن يفعل ذنبًا فالله مطلع عليه، وسيحاسبه عليه وسيُجازيه عليه.!

وقولــــــه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾، هـذا وصـف لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهـو الـذي خلـق الـسموات والأرض ومـا بينهما من المخلوقات في مقدار ستة أيامٍ من أيام الـدنيا، لأنـه لـم يكـن ثَـمّ أيـام حـين خلقها، وكان الله قادراً على خلقهـا في لحظـة، ولكـن أراد أن يعلّمنـا التـؤدة والتـدرج في أفعالنا، والاستواء هو العلو والارتفاع، أي: علا وارتفـع عـلى العـرش علـواً يليـق بجلاله عَزَّوَجَلَّ، والعرش هو أعظـم المخلوقـات، والله غيـر محتـاج إليـه، وهـو بـائنٌ عن الله منفصلٌ عنه، وهو الله الـرحمن، الـذي وسـعت رحمتـه كـل شـيء، وهـو مـن أعظم الأسماء المرتبطة بالذات الإلهية، ولذلك يحلّ محل الاسـم العلـم الـذي هـو الله، كما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[الإسراء:110]، فاسأل -يـا محمـد- اللهَ يخبرك عن نفسه الكريمة، فهو الـذي يعلـم صـفاته وعظمتـه وجلالـه ولا أحـد أعلـم من الله بنفسه، وقيل: اسأل عنه من هو خبير عارف بـه، ورجّحـه ابـن جـزيء[1]، فـلا أحد من البشر أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

وقولــــــه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾، السجود هو الخضوع لله حسّـًا ومعنـى، فالحسّـي هـو الـسجود بـين يدي الله على أعضاء السجود السبعة، وهذه الهيئة علامة على الخضوع، والمعنـوي هو خضوع القلب بالـسمع والطاعـة لـه سبحانه، وقـد رفـض كفـار قـريش الـسجود بنوعيه الحسي والمعنوي، وأنكروا معرفتهم باسم الله الرحمن، وتساءلوا عنه حين

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1284).

ذكره الرسول لهم، وقالوا كيف نسجد لمن لا نعرفه ولا نقرّ به؟! فلما أُمروا بالسجود للرحمن ازدادوا بُعْداً من الإيمان؛ لأنهم كانوا أصحاب كِبر، والسجود علامة للخضوع والتواضع والاستسلام لله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك كانت عبادة السجود من أعظم العبادات في هذا الدين، وحُرّمت لغير الله، فلا يُسجَد لمخلوقٍ مهما علت رتبته، وفي الحديث: **"لا يصلح لبشرٍ أن يسجد لبشر، ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"**[(1)].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- تعدد دلائل قدرة الله تعالى في الخلق، وضرب لنا أمثلة لها لبيان أنه مستحق وحده للعبادة.

2- بيان أن القرآن احتوى على الحجج والبراهين الحسية والمعنوية، العقلية والعاطفية.

3- بيان أن الدعوة بالقرآن ونشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صورة من صور الجهاد في سبيل الله، وأنها أول مراتب الجهاد.

4- بيان مجّانية الدعوة إلى الله تعالى، وأنه لا يجوز أخذ الأُجرة عليها، وخاصة ممن توجه إليه، وجواز التفرغ لها وأخذ راتب على ذلك من جهة أخرى.

(1) مسند أحمد: (20/ 64)، برقم: (12614)، وسنن الترمذي: (2/ 456)، برقم: (1159)، وإسناده حسن.

تفسير المقطع الخامس من سورة الفرقان

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ
يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ
سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ
بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ
إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ
فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ
حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾
وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟
بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾، **هذه الآية الثالثة في هذه السورة التي يُثني الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على

نفسه، بلفظ: "تبارك"، **أي**: تعاظم وكثُر خيرُه، **فالأولى في قوله**: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[الفرقان: 1]، **وفيها إشارة** إلى عظمة القرآن وعظمة من أنزله وتكلم به، **والثانية في قوله**: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾[الفرقان: 10]، **وفيها إشارة** إلى عظمة الرسول ﷺ، وما أعطاه الله من الفضل والخير، **والثالثة هنا**، وفيها إشارة إلى عظمة خلق السماء وما فيها، وهي كمقدمة وتمهيد للدخول إلى بيان صفات عباد الرحمن والثناء عليهم، وفي ذلك كله بيان لارتباط نزول القرآن بالمُنزَل عليه وهو محمد ﷺ وأتباعه العاملين به، فتعاظم وكثره خيره سبحانه، فهو الذي صيّر في السماء منازل وممرات وأفلاكًا تسير فيها الكواكب، وصيّر فيها شمسًا تضيء الكون في النهار وتمدّه بالدفء، وصيّر في السماء قمراً يُنير الكون ليلاً، وإنارته تأتي من الشمس لا من ذاته؛ ولذلك لا يوجد دفءٌ في ضوء القمر، وهي من آيات الله التي تدل على عظمة الله وقدرته سبحانه.

وقولـــــــه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾، وهو سبحانه الذي صيّر الليل والنهار خِلفة، **أي**: يخلُف الليلُ النهارَ ويخلُف النهارُ الليلَ إلى قيام الساعة، وهذه آية أخرى ونعمة عظمى تدل على عظمة الله وقدرته سبحانه، واللام للتعليل، ففي خِلفة الليل للنهار حِكم وعلل لمن أراد أن يتدبرها ويتأمل فيها فينتفع بها، والتذكر تفعُّل من الذكر أو من الذكرى، وهو الموعظة، **أي**: يحاول أن يعِظ نفسه بتقلب الليل والنهار، لأن تقلّب الليل والنهار في الحقيقة هو ذهاب لعمر الإنسان، وكل يوم يذهب هو جزء من عمره، فيتذكر بذلك انتهاء أجله، ففي تصرّم الليالي والأيام وذهابها

عبرة لمن اعتبر، أو أراد أن يشكر الله بعبادته والعمل بطاعته على تلك النعم، وربط التذكر والشكر بإرادة العبد لكي يفعل ذلك باختياره ليُؤجر على فعله، أو يتركها باختياره ليعاقب على تركه، فإن العبادة اختيارية والأجر والإثم على فعل العبد وكسبه، وعبّر للتذكر بالفعل المضارع ليدل على استمرار التذكرة في تصرّم الليالي والأيام وتقلّب الليل والنهار، وتجديد الاتعاظ بين الفينة والأخرى، بينما في باب الشكر أتى بالمصدر؛ لأن الشكر يأتي دفعة واحدة[1].

ثم قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾﴾، **الواو عاطفة** وهو من عطف جملة على جملة، وعباد الرحمن وصف تشريف للمؤمنين الخُلَّص الذين آمنوا بالله واستسلموا له وآمنوا برسله، وإضافتهم إلى الرحمن تشريف لهم، وتشنيع على أولئك القوم الذين كذبوا بالرحمن ولم يعترفوا به، ثم وصفهم بإحدى عشرة صفة، **وهذه الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسامٍ: قسمٌ** يتعلق بفعلهم الطيب المبارك، **وقسمٌ** يتعلق باجتنابهم لما لا ينبغي فعله، **وقسمٌ** يتعلق بطمعهم وحبهم لازديادهم من الخير، **فمن القسم الأول: ذكر الصفة الأولى لهم في قوله:** ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾، **والمشي الهون:** هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال، كحال مشية المتكبرين المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم[2]، **والمقصود بهذا الوصف** التواضع، فالذي يمشي بهدوء على الأرض ولا يُزعج من حوله هو المتواضع، بينما

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 66).

(2) التحرير والتنوير: (19/ 68).

المتكبر تسمع له صولة وجولة إذا مشى، فهذا وصفٌ لمشيهم، وهو كناية عن تواضعهم وضبطهم لحركات كل جوارحهم، **وذكر الصفة الثانية لهم في قوله:** ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، **أي:** إذا تعرَّض لهم أصحاب الجهل بالسب أو الشتم بالكلام السيّء فإنهم لا يردون عليه، بل يقولون له: "سلاماً"، **ولها معنيان: إما** على سبيل الدعاء: اللهم سلّمنا من هؤلاء الأشرار، واكفنا شرهم، وربما قالوها في أنفسهم، **أو** على سبيل إلقاء السلام على من أساء إليهم، فلو سبّهم شخص أو شتمهم أو استهزأ بهم قالوا: سلامٌ عليك، **أي:** لسنا مستعدين للدخول معك في قيل وقال، **ومعناها** عدم الرد على المسيء، ولا مانع من كِلا المعنيين، وهو تصرّف يدل على حسن أخلاقهم مع من يُؤذيهم أو يُسيء إليهم.

ثم ذكر الصفة الثالثة لهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾، وهذا وصف لحالهم في الليل مع الله، والأولى والثانية وصف لحالهم في النهار مع الخلق، فهم في الليل في عبادة وطاعة للخالق سبحانه، والبيتوتة هي الدخول في الليل نمْتَ فيه أو لم تنم[1]، وهي هنا بمعنى عدم النوم، **أي:** يقضون ليلهم في عبادة الله بالصلاة التي تحتوي على السجود والقيام، وقدّم السجود لفضله وشرفه، ففي السجود يكون العبد أقرب من الرب، وهو محل انكسار العبد وخضوعه بين يدي الله سبحانه.

ثم ذكر الصفة الرابعة لهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ

---

(1) ينظر: لسان العرب: (1/ 393).

جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾﴾، ومن صفاتهم الخوف من عذاب النار، فأكثروا من دعاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بصرفه عنهم، وهو دليل على أن تعلقهم بالله والدار بالآخرة أكثر من تعلقهم بالدنيا، ومن حق العبد أن يدعو بأدعية دنيوية ولكن لا ينسى أدعية الآخرة فهي الباقية، فعباد الرحمن يدعون الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم ويُنجيهم من النار وأن يُدخلهم الجنة، ويُصلح لهم أحوال آخرتهم، وعقّب الله على دعائهم هذا بالتأكيد على أهميته، فعذاب جهنم شديد ودائم ملازم لا ينفك عمن دخلها، والغرام: التعلق بالشيء تعلقاً لا يستطاع التخلص[1]، وجهنم مكان سيّء ومقر خبيث لمن دخلها واستقر فيها، وهذا وصف لحال عذاب جهنم مع الكفار، فإنها ملازمة لهم لا تتركهم ولا تفنى عنهم ولا يخرجون منها، فهي دائمة وهم مُخلدون فيها.

ثم ذكر الصفة الخامسة لهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾﴾، وهذا وصف لنفقاتهم في الخير، **أما النفقات في الشر** فكلها إسراف ولو كانت قليلة، فكل نفقة في المحرّم والشر فهي إسراف مهما قلّت، **ومنه سرف الماء:** ما ذهب منه في غير سقي ولا نفع[2]، فإذا كانت النفقة في المباحات فلا بد أن تكون وسطاً بين الإسراف والتقتير، فالإسراف هو المبالغة في النفقة، والتقتير هو التضييق والبخل، فخلاصة تعاملهم مع المال: لا

(1) المعجم الوسيط: (2/ 651).

(2) تهذيب اللغة: (12/ 277).

يضعونه في غير موضعه، ولا يقصرون به عن حقه، فهم معتدلون في نفقاتهم التي ينفقونها في حاجاتهم وسائر أمورهم.

ثم ذكر القسم الثاني من صفاتهم، وهي المتعلق باجتناب المحرمات **في قوله**: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨﴾، **فالصفة السادسة لهم هي**: عدم الشرك بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والابتعاد عنه، والصفة السابعة لهم هي: عدم قتل النفس المعصومة، واستثنى من ذلك أن يكون قتلها بالحق، وهو المذكور في قوله ﷺ: **"لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة"**(1)، **والصفة الثامنة لهم هي**: عدم الزنا، وجاء في حديث عبد الله بن مسعود، قال: "قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، قال: ثم أيّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك، وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ: **قوله**: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ [الفرقان:68]، الآية"(2)، فقد جُمعت هذه الثلاث الخصال في آية واحدة وحديث واحد لشدة قبحها، ومن يفعل هذه الثلاث مجتمعة فإنه سيلقى جزاء إثمه في الآخرة عظيماً، **ثم بيّن ذلك بقوله**: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾، أي: يُعذب يوم القيامة عذاباً مُضاعفاً في جهنم، ويُهان

---

(1) صحيح البخاري: (9/ 5)، برقم: (6878).

(2) صحيح البخاري: (8/ 8)، برقم: (6001).

فيها ولا كرامة له ولا مكانة، وذكر الخلود هنا مرتبط بفعله لهذه الثلاثة الذنوب مع بعض، لأن قتل النفس والزنى كبيرة من الكبائر، ومن فعلهما من المؤمنين فإنه لا يُخلّد في النار على المذهب الصحيح لجماهير أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة والخوارج.

ثم استثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من هذا الحكم من تاب منها توبة صحيحة بشروطها قبل الموت، **فقال:** ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾، فمن ترك الشرك والكفر، وأسلم وحسن إسلامه، وتاب من قتل النفس والزنا، وعمل الأعمال الصالحة وهي فعل الطاعات والقربات، وحقق شروط التوبة هي: الإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، ورد المظالم والحقوق لأهلها، قُبلت توبته وغُفر ذنبه، وتحولت سيئاته السابقة للتوبة إلى حسنات، وهذا من آثار التوبة وصدقها مع الله، وفضل الله وكرمه على التائبين، وذيّل الآية باسميه (الغفور الرحيم)، حتى لا ييأس ولا يقنط من أذنب، **وقد جاء سبب نزولها:** "أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾[الفرقان: 68]، الآية"(1).

وقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾، ثم عمّم وأكّد هذا الحكم ليشمل أصحاب المعاصي والذنوب كلها، فكل تائبٍ من أيّ ذنب،

---

(1) صحيح البخاري: (6/ 125)، برقم: (4810).

إن صدق في توبته وترك المعاصي وأقبل على فعل الأعمال الصالحة؛ فإن الله يقبل توبته ويغفر ذنبه، ويمحو حوبته، وتوبته هي التوبة الكاملة الخالصة لله، وفي ذلك تشجيع وتحفيز للكفار والمسرفين في فعل الذنوب والمعاصي بالإسراع إلى الإيمان والتوبة وأن لا ييأسوا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾، ذكر الصفة التاسعة لهم، وهي: عدم شهادة الزور، **ولفظ:** "يشهدون" **يحتمل معنيين، الأول:** يقولون الزور، **والمعنى:** أنهم إذا دُعوا إلى شهادة زورٍ لا يقبلون، بل يشهدون بالحق والعدل، **والثاني:** يحضرون، **والمعنى:** أنهم لا يحضرون مجالس الزور، وهي مجالس كل باطل وفساد وانحراف وبدع وخرافات ولغوٍ وخنا، ونحو ذلك من أماكن الباطل، والأول أرجح؛ لأن المعنى الثاني ذُكر بعده في الصفة العاشرة لهم، وهي في **قوله:** ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾، وهي عدم الجلوس في مجالس الباطل، **أي:** مشوا من مكان أو مجلس فيه لغو وهو الكلام الباطل، مرّوا كِراماً غير مشاركين فيه، ولا مستمعين لما يقال فيه، وأصل اللغو ما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع(1)، وأغلبه يكون في الباطل والشر، فلذلك يُكرمون أنفسهم عن الجلوس في مجالس الباطل ويكرمون أسماعهم عن سماع ما يقال فيها.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾، وهذه هي الصفة الحادية عشرة لهم، وهي سرعة تأثّرهم بالذكر، فإذا سمعوا

(1) المعجم الوسيط: (2/ 831).

آيات القرآن أو الموعظة تأثروا بها، وعبّر عن حالهم معها بالنفي من باب المقابلة لصفات الكفار الذين كانوا حريصين على عدم سماع الموعظة كأن بهم صمم أو أصيبوا بعمى الأبصار فلا يرون الواعظ والمذكّر لهم بها، **وأصل الخرور في اللغة:** السقوط من أعلى[1]، فشبّه حالهم بحال من لا يحب أن يرى شيئًا، فيجعل وجهه على الأرض، **واستعير الخرور هنا** لشدة الكراهية والتباعد منهم عند سماع القرآن والموعظة[2]، بخلاف المؤمنين فإنهم بعيدون كل البعد عن هذه الحال، بل هم حريصون على سماع الموعظة والاستفادة منها.

ثم ذكر القسم الثالث من صفاتهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾، **وهي** صفات الحرص على الازدياد من الخير، **فذكر الصفة الثانية عشرة لهم، وهي:** الدعاء بصلاحهم وصلاح الأزواج والذرّيّة، فهم حريصون على صلاح أزواجهم وذرّيّاتهم في الدنيا، وقد جمع ذلك لهم في صفة قرّة أعين، فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة، فهم يطلبون من الله أن يرزقهم زوجات وذرّيّة يعجبهم صلاحها واستقامتها وإقبالها على الله، ليعيشوا معهم حياة سعيدة في الدنيا والآخرة، كما أنهم لم ينسوا أنفسهم من الدعاء، بل كانوا أصحاب همة عالية في ذلك، فلم يطلبوا أن يكونوا صالحين فقط، بل طلبوا من الله أن يجعلهم قدوة وأئمة للصالحين المتقين، والإمامة في الدين نعمة عظيمة تُمنح بالصبر واليقين، **كما قال:** ﴿وَجَعَلۡنَا

---

(1) ينظر: تاج العروس (11/ 153).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 80).

مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة:24].

ثم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦ ﴾، وهذه الجملة خبر للمبتدأ[1] في قوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾، أي: من توفرت فيه تلك الصفات السابقة؛ فإنه يُثاب على ذلك في الآخرة بدخول القصور العالية المرتفعة في الجنة، والغرفة في اللغة المكان العالي المرتفع[2]، والباء سببية، أي بسبب صبرهم في الدنيا على جميع أنواع الصبر: الصبر على الابتلاءات، والصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي والمحرمات، فأعطاهم الله أعلى درجات الجنة في تلك الغرف العالية، وتُلقي الملائكة عليهم التحية والسلام كلما مرّت بهم، وذلك لشرف مكانتهم ومنزلتهم عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهم فيها سالمون من كل الآفات والأسقام والأمراض وسائر القذرات، وهم فيها خالدون، فلا يخرجون منها ولا يموتون فيها، ولا تنقطع تلك النعم عنهم، وهذه نعمة أخرى لهم في الجنة، فإن الإنسان إذا حصلت له النعمة يعتريه الخوف من أمرين: أن تنتهي النعمة، أو أن يموت هو، فمنح الله أهل الجنة هذين الأمرين، فهم أحياء خالدون، والنعمة دائمة لا تنتهي، ونِعم المستقر والمقام مستقرهم ومقامهم في تلك الجنات، نسأل الله من فضله.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ

---

(1) ينظر: تفسير القاسمي: (7/ 446).

(2) ينظر: تاج العروس: (2/ 254).

﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾، قل يا محمد للكفار المُصِرِّين على كفرهم: إن الله لا يُبالي بكم، فلا وزن لكم عند الله ولا قدر، **وأصل العِبْء في اللغة**: الثِقل[1]، **وللمفسرين في معنى الدعاء هنا ثلاثة أقوال**[2]، **الأول**: لولا عبادتكم وإيمانكم، **والثاني**: لولا استغاثتكم ودعاؤكم الله فيرحمكم، **والثالث**: لولا أن الله دعاكم إلى عبادته بإرسال الرسل، **والمعنى الثالث** هو الأقرب للسياق بعده وهو **قوله**: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾، **أي**: كذّبتم برسلي، فقد أرسلت إليكم محمداً يدعوكم إلى الإيمان ولكنكم قابلتم دعوته بالتكذيب، فحقّ عليكم العذاب وسينزل بكم لا محالة في الدنيا وفي الآخرة، وقد حصل لهم عذاب الدنيا في بدر وفي غيرها من الغزوات، وفي الآخرة ينتظرهم عذاب جهنم، وفي الآية إشارة إلى حقارتهم عند الله تعالى، وأنه ما بعث إليهم رسوله إلا رحمة منه بهم لإصلاح حالهم وقطعاً لعذرهم[3].

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - بيان أهم صفات عباد الرحمن، وعددها اثنتا عشرة صفة، وهي: التواضع، والإعراض عن الجاهلين، وقيام الليل، والخوف من عذاب الله، والتوسط في النفقة، وعدم الشرك بالله، وعدم قتل النفس المعصومة، وعدم الزنا، وعدم شهادة الزور، وعدم الجلوس في

---

(1) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 78).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 162).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 85).

مجالس الباطل، وسرعة تأثّرهم بالذكر، والدعاء بصلاحهم وصلاح الأزواج والذرّيّة.

2- بيان أن التوبة النصوح تجبّ ما قبلها، وأن من تاب توبة نصوحًا بدّل الله سيئاته حسنات.

3- بيان العاقبة الحسنة للصبر، وأن الله تعالى يُوفّي الصابرين أجرهم في الآخرة بغير حساب.

4- غِنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن عبادة الخلق أجمعين، وهوان الخلق على الله إن كفروا به.

تفسير سورة الشعراء

تفسير المقطع الأول من سورة الشعراء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ
نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ
عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ
أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ٩ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ
إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ
ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ
فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١ وَتِلۡكَ
نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾.

شخصية السورة:

سورة الشُعراء؛ سورةٌ مكية[1]، **والمقصد العام للسورة هو**: بيان آيات الله

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 135).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تأييد المرسلين، وإهلاك المُكذبين، **وسُميت بسورة الشعراء** لذكر وصف الشعراء في آخرها.

وابتدأ بقوله: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾، **والصحيح في تفسيرها** أنها من حروف الهجاء التي يتكوّن منها القرآن الكريم، وفي ذلك إشارة إلى إعجازه، فهو يتكوّن من حروف لغة العرب التي تتكلم بها العرب، ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بسورة مثله.

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾، **أي:** هذه آيات القرآن البيّن الذي يفصل بين الحق والباطل، والواضح في إعجازه، فلا غموض في أحكامه وتشريعاته.

وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، **الخطاب لنبيّنا محمد** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، و"لعل" إذا جاءت في ترجّي الشيء المخوف، سُميت إشفاقًا وتوقعًا، **والباخع:** القاتل[1]، **والمعنى:** من شدة حرصك على هدايتهم؛ تكاد أن تموت من الهم والحزن بسبب تكذيبهم لك، وعدم إيمانهم بك، وهذا من شفقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأمته وحرصه على هدايتهم، ويجب أن يقتدي به الدعاة والعلماء في كل مكان وزمان، فيكون حالهم مع المدعوّين كحاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مع أمته؛ يدعونهم بشفقة ورحمة وحرص، ويشعرون بالهم والحزن لابتعاد الناس عن الخير، ويُفكرون في الأساليب والوسائل التي تشجع الناس على الاستقامة والصلاح.

وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾، **أي:** لو نريد لنزّلنا عليهم معجزة تدفعهم إلى الإيمان الاضطراري، ولكنّا لا نفعل ذلك؛

(1) التحرير والتنوير: (19/ 93).

لأنّا لا نريد من أحدٍ إلا الإيمان الاختياري بحجة وبرهان وقناعة، فلا يصلح الإكراه للناس على الإيمان، **كما قال:** ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:99]، فلذلك أيّ مذهب أو عقيدة أو فِكر يَدخل الناس فيه بالقوة والإكراه لا يُكتب له الاستمرار، بل ينتهي بانتهاء سببه وهو الإكراه، وغالبًا من يفعل ذلك هم أصحاب المعتقدات والأفكار الباطلة التي لا يمتلك أصحابها الحجة والبرهان لإقناع الناس فيضطرون إلى فرضها عليهم بالقوة، أما الاعتقاد الصحيح فلدى أصحابه من الحجج والبراهين ما يكفي لإقناع الناس وقبولهم به باختيارهم، فيقبلون عليه ويدافعون عنه ويستمرون عليه حتى الموت، وعبّر بخضوع الأعناق، الأعناق جمع عنق وهي الجارحة المعروفة[1]، وهي الرقاب، فإذا وطّأ الإنسان رأسه وأنزل رقبته فهي علامة على الاستسلام، وفي الآية إشارة إلى فضّل الإيمان بالغيب، وهو من أخص صفات المؤمنين، **كما قال:** ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[البقرة:3]، بخلاف الكفار الذين لا يؤمنون إلا بالماديات والمحسوسات.

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥﴾، أخبر عن المُكذبين أنهم لا يُؤمنون بآيات القرآن، بل يعرضون عن سماعها عند تجدد نزولها، وسمّاها ذكراً؛ لأن في تجدد نزولها تذكيراً لهم، أتى هنا باسم (الرحمن) من باب الترغيب لهم، فرحمته وسعت كل شيء، فآمنوا به، وصدّقوا برسوله.

و﴿مُحْدَثٍ﴾، وصف للإنزال وليس للمُنزَل، **أي:** يأتيهم الذكر في أوقات متجددة، وقد كان القرآن يتنزل على نبيّنا محمد بين الحين والآخر خلال فترة

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1297).

حياته معهم، ولا حجة للمعتزلة في الاستدلال بهذا اللفظ على أن القرآن مخلوق[1]، بل القرآن كلام الله، وهو صفة ذاتية له سبحانه غير مخلوقة، كغيره من الصفات، والتعبير بالحصر يدل على استمرارهم في الإعراض عنه وعدم الإقبال عليه والاهتداء به فصار وصفًا لازمًا لأولئك الكفار.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾، فقد كذّب هؤلاء المعرضون بما جاءت به الرسل من الحق بفعلهم هذا، فسيأتيهم جزاء وعقوبة كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم بالرسول ﷺ وما جاء به، وجاء الكلام بأسلوب الإخبار ولكنه يُفيد التهديد والوعيد.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾، **السؤال** تقريري توبيخي لهم، والرؤية بصرية، فإنهم يرون الأرض وهي ميتة يابسة لا نبات فيها، فإذا أنزل الله عليها المطر أخضرت وأنبتت من كل صنف من أصناف النبات، **كما قال:** ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[الحج:5]، **والكريم في الأصل:** الحسن الشريف[2]، **والمقصود به هنا** النافع، وما من نبات من النباتات إلا وفيه منفَعة قد يعرفها بعض الناس وقد لا يعرفونها، كبعض النباتات لا يعرف منفعتها إلا الخبراء في الطب فيستخرجون منها العلاج، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يخلق شيئًا عبثًا حتى من الأشجار، وفي آية أحياء الأرض وإنبات أصناف الزرع

(1) ينظر: تفسير السمعاني: (3/ 367).

(2) فتح القدير للشوكاني: (4/ 110).

النافعة حجة وبرهان على قدرة الله وعظمته، لو كانوا هؤلاء الكفار يعتبرون بالآيات والحجج؛ لآمنوا وصدَّقوا، لأن حجج الله على خلقه في هذا الكون كثيرة، ولكن قد سبق في علم الله أن أكثر مشركي أهل مكة[1] لا يؤمنون، ثم ذيّل الآية بذكر اسمين من أسمائه الحسنى، فـ **(العزيز)** يفيد الترهيب، ففيه معنى القهر والبطش والانتقام من المكذبين، و**(الرحيم)** يفيد الترغيب، ففيه معنى الرحمة واللطف والنجاة للمؤمنين.

ثم قال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾، بدأ بذكر قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون قبل غيرها من القصص التي هي قبلها في الزمن؛ لأنها مليئة بالطغيان والظلم وهو موجود مثله في قوم قُريش، تنبيهاً لهم لعلهم أن يتَّعظوا بما جرى لفرعون وقومه، **والمعنى:** واذكر يا محمد لقومك قصة موسى حين نادى ربك موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الوادي المقدس، كما جاء ذلك في آيات أخرى، وجاء الكلام هنا مُختصراً، وأمره بالذهاب إلى القوم الظالمين أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، والظالمين لبني إسرائيل بالاستعباد وذبح الأولاد، فادعهم إلى الإيمان بالله، وأنذرهم عاقبة الكفر والطغيان، ثم بيّن المقصود بهم وأنهم قوم فرعون، وأمره أن يذكّرهم بأنه قد حان وقت ترك ما يغضب الله وصرف عقوبته عنهم بالإيمان بالله.! والاستفهام إنكاري تعجبي من انتفاء تقواهم[2]، فإن موسى كان مطلعاً على

(1) التحرير والتنوير: (19/ 102).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 104).

أحوالهم، فقد نشأ بينهم وعلم كفرهم وفسادهم.

وقولــــه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾، فخشي موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ألا يُستجاب له من آل فرعون بسبب معرفته بطغيانهم، فذكر مجموعة من المُبررات التي تعذره في حال عدم تصديق آل فرعون له، وهذا ليس تهرّباً من موسى ولا اعتذاراً منه عن الدعوة، فإنه لا يجوز لمسلم أن يعتذر من العمل مع الله، ولذلك لا تقبل الاستقالة من الدعوة، لأن العمل فيها مع الله، ولا أحد أحسن قولاً من الداعية إلى الله، **كما قال الله:** ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟![فصلت:33]، **ثم بيّن** أثر تكذيبهم له وإعراضهم على نفسيته فتصاب بالضيق من كثرة همه وحزنه عليهم، وهذا الحال لموسى يتوافق مع ما سبق من حال محمد ﷺ في بداية السورة، وهو يدل على شفقة الأنبياء والرسل على أقوامهم، كما أن تكذيبهم له يُؤدي إلى انعقاد اللسان عن الانطلاق في الكلام والاستمرار في دعوتهم[1]، فإن الإنسان المقهور والمتعب نفسياً لا ينطلق لسانه بالحديث كالشخص الهادئ طيّب النفس، **وقيل**[2]: إن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يُشير إلى ما في لسانه من عيب بسبب ما حصل له وهو طفل صغير في قصر فرعون، حين اختبره فرعون بالجمرة والتمرة، فأخذ الجمرة فوضعها في فمه، فأصابت لسانه[3]، **وقد وصفه فرعون في حواره مع قومه، بقوله:** ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي

(1) ينظر: المصدر السابق: (19/ 106).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 166).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 236).

﴿هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[الزخرف:52]، أي: لا يكاد يفصح في كلامه، ولذلك طلب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ربه أن يكون معه أخوه هارون رسولاً ومعيناً له في الرسالة، وبيّن سبب ذلك، كما في قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[القصص:34]، ولا مانع من اجتماع السببين السابقين، فلا تعارض بينهما، ثم أضاف عذراً آخر وهو أنه قد قتل شخصاً من آل فرعون بالخطأ، فتآمر آل فرعون على قتله، فهرب منهم إلى مدين، فعودته إليهم ستكون سبباً لقتله بالقتيل السابق منهم، وليس ذلك منه هلعاً وفرقاً من الموت، ولكنه خشي أن يكون ذلك عائقاً له من إتمام المهمة المكلّف بها، فرد الله عليه بقوله: ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾، "كلا" معناها الردع والزجر، والرفض والإضراب، عما سبق من تخوّف موسى من أن يقتله آل فرعون[1]، فوعده الله بانتفاء القتل منهم له، بل سيحميهما الله معاً من أذية آل فرعون لهما، وينصرهما عليهم، كما في قوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[القصص:35]، واستجاب الله لطلبه، فأرسل معه أخاه هارون نبياً، وأمرهما بالذهاب إلى فرعون وقومه لدعوتهم، وأعطى الله موسى الآيات المعجزات كالعصى التي تتحول إلى ثعبان، واليد التي تكون بيضاء من غير مرض، ووعد الله موسى وهارون بأن يكون معهما بالتأييد والنصر والتوفيق والتسديد، كما قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:46]، ومع آل فرعون بالعلم والإحاطة، فنحن مستمعون لما تقولون لهم وما يقولونه لكم، ولا يفوتنا من ذلك شيء.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 29).

وقولــــــه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾، **أي:** اذهبا إلى فرعون وأبلغاه أن الله أرسلكما إليه لدعوته إلى الإيمان بالله، وترك الاستعباد والقهر لبني إسرائيل وتركهم وشأنهم، **ولفظ:** "**رسول**" مصدر وصُف به، فيطلق على الواحد والاثنين والجماعة[1].

وقولــه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾، فلما وصل موسى وهارون إلى فرعون؛ كان موسى هو الذي خاطب فرعون، لأنه هو صاحب الرسالة، وهارون معاونـاً وتابعـاً له، **فرد فرعون الخطاب إلى موسى قائلاً له:** كيف يصدر منك هذا الكلام؟! وقد كنت طفلاً صغيراً عندنا، أخذناك من النهر رضيعـاً، وربيناك في قصرنا حتى كبُرت وصرت شاباً قوياً نشيطاً، فلم تشكر نعمتنا عليك بالتربية والإحسان إليك، بل جحدتها ولم تؤدِّ حقها، وقتلت واحداً من القبط انتصاراً لشخصٍ من قومك، ثم هربت منا سنوات، والآن أتيت لتدعونا إلى دينك الجديد!!، **وكان قصد فرعون توبيخ موسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهذا الكلام والتشغيب عليه حتى لا يستمع إليه أحد، وهذا هو منطق المجرمين في كل زمان ومكان، وتخيّل معي عندما تكون صغيراً في القرية، وتكون صاحب مشاكل وأذية للناس في صغرك، ثم يمنّ الله عليك وتذهب لطلب العلم في مركز علمي لعدة سنوات، ثم ترجع إلى قريتك داعياً وواعظاً ومرشداً للناس، فربما تجد من المجرمين ورفقاء السوء السابقين من يذكّرك بسيرتك السيئة السابقة؛ ليمنعك من الدعوة

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1298).

واستفادة الناس منك، لذلك لا تبتئس ولا تترك الدعوة، بل اثبت واستفد من سيرة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقولــه: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾، فرد موسى على فرعون قوله معترفًا بفعلته، وهي قتل القبطي، ومبرراً لوقوعها منه، بأنه كان آنذاك من "الضالين"، **وفي معناها قولان**[1]، **الأول:** أنّي لم أتعمد قتله، ولم أكن أعلم أن وكزي له سيقضي عليه، **والثاني:** أنّي فعلت ذلك قبل أن يوحي الله إليّ، ويبعثني رسولاً، ولا تعارض بين المعنيين، ويمكن أن يكون قصدهما معًا، ثم بيّن أنه لم يجحد النعمة التي يدّعيها عليه فرعون، وإنما هرب خوفًا منهم، بعد أن ثبت عنده أنهم يُخططون لقتله، وبعد الهروب منهم والمُكث في مدين عشر سنين منحه الله وأعطاه النبوة، **وقيل:** العلم والفهم[2]، ولا تعارض بين المعنين، فالنبوة تستلزم العلم والفهم، وأرسله إليهم من ضمن الرسل الذين يُرسلهم الله إلى الخلق، ثم رد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون امتنانه عليه بالتربية صغيراً؛ بأنها نعمة واحدة لكنها لا تقارن بما فعله من ظلم واستعباد لبني إسرائيل، فقد أحسن إلى واحد وظلم آلافًا من قومه، فأيّ نعمة هذه التي يمّن بها عليه؟!! وقد فهم موسى من فرعون المنّ عليه بذلك، فاستنكر ذلك منه، وأعلمه بأن بني إسرائيل هم أصحاب المِنّة على فرعون؛ فإنهم قائمون بخدمته

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 35).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (13/ 95).

والعمل الذي يجري في مملكته، رغم ظلمه لهم، وهذا خُلق الطغاة في كل زمان، فبعضهم يسجن العلماء والصالحين ويصادر حقوقهم، ثم يمَّن على بعضهم بالإفراج، فيطلب من أهلهم شكره على فعله هذا، والتحدث بنعمته عليهم!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان شفقة الرسل وحرصهم على هداية أقوامهم، ووجوب أن يقتدي بهم في ذلك العلماء والدعاة إلى الله.

2- أن ضيق الصدر يجعل اللسان يتوقف عن الحوار والكلام، فعلى الداعية أن يُوسع صدره لينطلق لسانه في الدعوة والبلاغ المؤثر.

3- بيان أن دعوات الأنبياء والرسل جاءت كلها لتحرير الناس من العبودية لغير الله، وهكذا يجب أن يقف الدعاة والعلماء في كل زمان ومكان مع المظلومين والمضطهدين والسعي في تحريرهم.

4- بيان فضيلة الاعتراف بالخطأ وذكر مبرره، وفضيلة التوبة منه.

5- بيان أن أخطاء الداعية تُحسب عليه، ولا تُحسب على دعوته.

تفسير المقطع الثاني من سورة الشعراء

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠)﴾.

قول الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣)﴾، ما زال الحوار مستمراً بين فرعون وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فحين سمع فرعون قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنه رسولٌ من رب العالمين، سأله فرعون سؤال استنكار لعبودية موسى لغير فرعون، فمن هو هذا الرب الذي أرسلك، وهل يوجد رب للناس غيري؟![1]، **فأجابه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بقوله:** ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 138).

مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾، رب العالمين الذي أرسلني إليك، هو رب السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات العظيمة، إن كنتم مستعدين للإيقان وممن يطلب الحقّ ويستيقن به!، واليقين مرحلة لا يصل إليها إلا الخُلَّص من المؤمنين، وهؤلاء يعيشون حالة عظيمة من الشك والريب، ولذلك لم يقبل فرعون بجواب موسى، **بل شغّب عليه بقوله:** ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾، فالتفت بخطابه إلى حاشيته والحاضرين عنده، مستنكراً ومتعجباً من جواب موسى، طالبًا منهم التعجب مما سمعوا، فهو الإله والرب، ولا رب للناس سواه!، **كما في قوله:** ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص:38]، **وقوله:** ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات:24]، وهذا منه مغالطة وتشغيب لمّا لم يجد جوابًا عن الحجة التي أوردها عليه موسى[1]، فلما سمع منه موسى هذا الاستهزاء والاستخفاف، **رد عليه بقوله:** ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾، وفي هذا إشارة إلى أنك يا فرعون لا تصلح أن تكون إلهًا وربًا، لأنك مولود، ولديك أب، وآباؤك لديهم آباء، والمُتوالد مخلوق، فلا يصلح أن يكون إلهًا وربًا، فالله سبحانه هو ربكم ورب آبائكم السابقين لكم، وقد كان الأقباط يعتقدون أن الفراعنة آلهة مقدّسة[2]، فأبطل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذه الفكرة ونقض أصلها، فلما سمع فرعون هذا الكلام من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اشتاط غضبًا، **وخاطب من حوله بقوله:** ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾، **والتعبير برسولكم** إشعار برفض رسالته

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 114).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 119).

إليه؛ لأنه يرى أنه إله ورب، ثم وصفه بأنه لا يعي ما يقول، ولو كان عاقلاً لما صدر منه مثل هذا الكلام، **وهو**: أن الله هو رب العالمين ورب السموات ورب آبائنا الأقدمين الذين نعتقد أنهم آلهة، وهنا يظهر أثر الطغيان على العقل حتى ينكر القطعيات ويناقش في البديهيات، فصار من يقول: إن الله هو رب العالمين مجنونًا، **ومن يقول**: إن فرعون هو الرب والإله عاقلاً!!، فأي انتكاسة في الفطر والعقول أكبر من هذا؟!، ولكن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يلتفت إلى سفاهته وينشغل بها، بل استمر في سرد الحجج والبراهين الدالة على بطلان ما يقوله فرعون، **بقوله**: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فنقله إلى الحجج والبراهين والآيات المُشاهَدة، وهي شروق الشمس وغروبها، فالذي يجعلها تشرق وتغرب ويتصرف في هذا الكون، هو الله، وأنتم ترون ذلك بأعينكم، وهذا الاستدلال شبيه باستدلال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حواره مع النمرود، حينما رأى أنه لا يفقه الحجج والبراهين، **لما قال له**: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة:258]، فترك جداله ونقله إلى برهان وآية مشاهدة، **فقال**: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[البقرة:258]. **فهنا**: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فارتقى معه في الخطاب قليلاً فأظهر فيه معنى القوة والصلابة في الحجة والثبات، ولك أن تتخيّل أن شخصًا يقف أمام طاغية وحوله جنوده وحاشيته ويُحاوره بكل ثبات وقوة، وقد استخدم معه في بداية الحوار أساليب اللين والتلطف.

ولكنه لما تجاوز حدود الأدب معه في قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾﴾، **رد عليه بقوله:** ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، **والمعنى:** لو كنتم تعقلون لاتضح لكم من هو المجنون الظاهر عليه الجنون في كلامه وتصرفاته، موسى أم فرعون؟! فلما سمع فرعون هذه العبارة؛ لم يستمر في الحوار، وانطلق إلى التهديد بالقوة والبطش؛ لأنه لو استمر لانفضح أمره بين قومه وانهزم، **فـ** ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وهذا تهديد واضح وصريح لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالسجن لو استمر في الدعوة إلى توحيد الله وترك عبادة فرعون، كما فعل النمرود من قبله مع إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **كما في قوله:** ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[الأنبياء:68].

وهذا حال الطغاة في كل زمان ومكان، يهربون من الحجة والبرهان إلى استخدام القوة والبطش لإثبات مذهبهم وإرعاب المخالفين لهم، **وقوله:** ﴿مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾، **فيه إشارة** إلى أنك لست أول من يسجن عندنا، بل سبقك غيرك، وكان من عادته أن يضع المسجون في بئر عميقة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشد عليه من القتل[1]، **فرد عليه موسى** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **بقوله:** ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾﴾، هل ستتراجع عن قرارك هذا لو أعطيتك شيئاً واضحاً بيّناً يثبت أني صادق فيما أدعوك إليه؟!، فانتقل موسى من الحوار اللفظي بالحجة المعنوية إلى إثبات صدقه بالدليل الحسي، وهو المعجزة الخارقة للعادة، فاستجاب فرعون لطلب موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حتى لا يخسر موقف من حوله، **فـ** ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾، **وفي العبارة** إشعار

(1) ينظر: تفسير الرازي: (24/ 500).

بالتحدي، **والمعنى**: إن كان معك معجزة فأتِ بها حتى نراها بأعيننا إن كنت صادقًا في دعواك، والذي دعا فرعون إلى التحدي لموسى، **هو**: هزيمته في الحوار اللفظي السابق، فيُريد بهذا التحدي لعله يحصل على فرصة للنصر على موسى أمام من حوله، **فأجابه موسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾، **والفاء** للتعقيب، **أي**: باشرَ رمي العصى بين يدي فرعون ومن حوله دون تأخر، فتحولت إلى ثعبان واضح لكل من يشاهده، وأخرج موسى يده من فتحت ثوبه فإذا بها بيضاء تُشع نوراً دون مرض، يشاهد هذا البياض فيها كل من ينظر إليها، وصار بياضها مما يقصده الناظرون لأعجوبته، وكان لون جلد موسى السمرة(1)، فلما رأى فرعون هذه الآيات البيّنات سارع إلى رفضها، دون تأمل وروية، وهذا أثر من آثار الطغيان، فلم يقبل الأدلة المعنوية ولا الحسية، **فـ** ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، خاطب من حوله من كبار القوم وأركان المملكة، قائلاً لهم: إن ما ترونه هو سحرٌ فعلَه موسى بكم لأنه ساحر متمرس في السحر، عالم بطرقه وأساليبه، وهدفه من هذا الاتهام إبطال الحجة والمعجزة الحسية التي رأوها، ولم يكتفِ بهذه التهمة الباطلة، بل استنهض من حوله بذكر اتهامٍ آخر لموسى بأنه أتى بهذا السحر لغرض طردكم من أوطانكم، وهذا تحفيز لنفوسهم وملؤها غيظًا وحنقًا على موسى ودعوته، طالبًا منهم الشورى في كيفية رد هذه المؤامرة الخطيرة على البلاد!، والواقع أن

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 124).

فرعون لا يقبل الرأي والشورى من أحد، **كما قال الله عنه:** ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[غافر:29]، ولكن الطغاة يستخدمون مثل هذه الأساليب للضحك على من حولهم، وربما شكّلوا مجالس شكلية للشورى، لتمرير ما يريدون من قرارات، فطلب فرعون الأمر له ممن حوله ليس على حقيقته، بل كان نوعـًا من الخداع لهم، ولكن الله جعل في جوابهم فرصة جديدة لموسى لإثبات الحجة أمام عموم الجماهير، لأن حواره هذا كان مقتصراً على الملأ والحاضرين في القصر، وهذا من تدبير الله لموسى، **فردوا عليه بقولهم:** ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾، **أي:** أخّر الفصل في الحكم عليه وعلى أخيه حتى ترسل رسلاً من جنودك إلى المدن والقرى المبثوثة في مملكتك، ليجمعوا لك كل السحرة الماهرين في عمل السحر الخبيرين بطرقه وأساليبه، والهدف من ذلك إبطال ما جاء به موسى من السحر، وكانت مصر في عهد الفراعنة مشهورة بالسحر، ومعجزة كل نبي يأتي بها الله بناءً على المشهور في قومه، **وفي قوم عيسى** كان الطب مشهوراً فيهم، فجاءت معجزة عيسى في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، **وفي عهد محمد** ﷺ كان العرب مشهورين بالشعراء والبلغاء الذين لا يُجاريهم أحد، فجاء القرآن معجزة لهم في ذلك، فلم يقدر أحد أن يأتي بجزء من مثله.

وقوله: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾، أي: ففعل فرعون ما طلبه منه الملأ، فأرسل رسلاً يجمعون السحرة من كل المدائن ويأتوا بهم، وقد كانوا سألوا موسى عن الزمان الذي يتم فيه لقاؤه بالسحرة،

فحدده لهم، **كما في قوله:** ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[طه:59]، فالوقت المعلوم هو يوم عيدهم المعروف لهم، في وقت الضحى، واختار موسى هذا الوقت لكي يحضر أكبر عدد من الناس لتفرغهم عن مشاغلهم فيه كونه يوم عيد وراحة لهم، وأمر فرعون الناس بالاجتماع وعدم التخلف، فالاستفهام مستعمل في طلب الإسراع بالاجتماع، وبيّن لهم الهدف والغاية من الاجتماع، وهو اتباع السحرة عندما يغلبون موسى ويبطلون ما جاء به من السحر، **وعبّر بـ** "إنْ"؛ لأنها أصل أدوات الشرط؛ فقد كانوا لا يشكون بهزيمة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والتغلب عليه(1)، وهذا شأن المغرورين والمعجبين بأنفسهم!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن دلالات الخلق والإيجاد في هذا الكون كثيرة ومتنوعة، تدل على أن الله هو المستحق للعبادة، وحده لا شريك له.

2 - أن ضعف الحجة سبب من أسباب الطغيان وترك الحوار السلمي إلى الحرب وحمل السلاح.

3 - أن من وسائل الطغاة استثارة العامة على الدعاة والمصلحين.

4 - أن نفوس المؤمنين الصالحين لا تقبل بالظلم والاستبداد، بخلاف النفوس المستعبدة التي تسكين وتقبل بها.

5 - أن الشورى عند الطغاة شكلية لا حقيقية.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 126).

تفسير المقطع الثالث من سورة الشعراء

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا
لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (٤٣) فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ
فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (٤٥) فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ
سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ
إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ
أَجۡمَعِينَ (٤٩) قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٥١) ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦)
فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ (٥٧) وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (٥٩)
فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ
رَبِّي سَيَهۡدِينِ (٦٢) فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ
ٱلۡعَظِيمِ (٦٣) وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ
(٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨)﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٢)﴾، **سبق معنا في تفسير المقطع السابق** أن

فرعون أرسل في مدائن مصر جنوده لجمع كبار السحرة منها وإحضارهم لكي يناظروا موسى فيما ادَّعاه من بيّنة ومعجزة، فلما اجتمع السحرة وكانوا سبعين رجلاً[1]، **قالوا لفرعون:** هل ستعطينا أجراً وثواباً لو غلبْنا موسى؟ **قال:** نعم، سأُعطيكم ثوابًا، وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين عندي في المرتبة والجاه، وهذا يدل على طبيعة العلاقة بين الطغاة وبين السحرة، وعلماء السوء قديمًا وحديثًا، فهم الذين يزينون لهم الفساد في الأرض ويشجعونهم عليه بمقابل حصولهم على المصالح الشخصية العاجلة.

وقد وعظهم موسى لعلهم أن يتركوا ما اجتمعوا لأجله، **كما في قوله:** ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[طه:61]، فأبوا إلا أن يستمروا في تنفيذ ما جمعهم فرعون لأجله، فسألوا موسى هل نُلقي سحرنا أم تُلقي سحرك أنت؟! فـ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، وهذا هو الأسلوب الصحيح، فإذا أردت أن تُبطل شبهة غيرك؛ أن تجعله يبدأ هو من أجل أن تُكِرّ على شبهته بعد أن تكون الصورة قد اتضحت لك، وهذا من فطنة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾، فيها إشارة إلى أنه مستخف بهم وبما عندهم.

وقوله: ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾، فاتفق السحرة على أن يرموا بسحرهم دفعة واحدة لإبطال سحر موسى، كما يزعمون، وتخويفه، وكانوا قد صنعوا ذلك السحر من الحبال والعِصي، وحوّلوها إلى حيّات وثعابين واستعانوا عند إلقائها بعزة فرعون، وأكّدوا على أن

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم :(7/ 2428).

الغلبة ستكون لهم بسببها، وكانوا مُقتنعين أنهم لن يُغلبوا، وهم بهذا العدد الكبير مقابل ساحر واحد، كما يزعمون، وألقوا سحراً عظيماً خاف الناس منه، ووقع في نفس موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ شيء من الخوف لم يظهره للناس، بل ثبّته الله، ووعده بالنصر عليهم، **كما في قوله:** ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ [طه:67-68].

وقوله: ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾، فرمى موسى عصاه فتحوّلت إلى ثعبان عظيم ابتلع كل ما ألقوه من العصي والحبال التي تحولت بسحرهم إلى ثعابين في الميدان كذباً وزوراً، وأعدمها الله تعالى في جوفها وعادت العصا إلى حالها، فلما رأى السحرة هذا المشهد تأكدوا أن ما جاء به موسى ليس بسحر، بل معجزة؛ لأنهم يعلمون طبيعة السحر، فما كان منهم إلا الإذعان للحجة والإيمان بالله، وأن موسى نبيٌّ مُرسل، **فسجدوا لله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خاضعين ورافعين أصواتهم بقولهم: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، لكي يسمعهم فرعون والحاضرون من الناس، وكان الواجب على فرعون ومن معه لما رأوا الحق، وأقر به السحرة وآمنوا به؛ أن يتبعوهم في ذلك، وأن يُعلنوا الإيمان بالله، ولكن الطغاة لا يقبلون الحق مهما كان واضحاً، بل يبحثون عن شبهة جديدة لرده والاستمرار في طغيانهم وفسادهم، حيث توجَّه فرعون بالخطاب إلى السحرة المؤمنين، فـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾، وظن الطاغية فرعون

أنه حين تحكّم في أجساد البشر وأموالهم وبلدانهم وثرواتهم؛ قادر على التحكّم في قلوبهم، فاستنكر كيف يؤمنون بموسى قبل أن يطلبوا الإذن منه؟! وتجاهل أن القلوب بيد الله وليست بيده، ثم اتهم السحرة بعلاقتهم بموسى باعتباره أستاذهم الذي علمهم السحر، وأنهم تواطؤا معه في هذا الفعل، وهذه فرية معلوم بطلانها، فإن السحرة لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم[1]، وهدفه من ذلك تهييج مشاعر الجماهير ضدهم، وهذا يدل على إفلاس فرعون من الحجة، ولم يكتفِ بذلك، بل هددهم بالقتل إن لم يرجعوا إلى دينه ويكفروا بما جاء به موسى، بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وهو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم قطع اليد اليسرى والرجل اليمنى[2]، ثم يربطهم على جذوع النخل ويتركهم تنزف دماؤهم حتى يموتوا وهم على تلك الحال.

فكان رد السحرة المؤمنين عليه: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾، **أي:** لا يضرنا تهديدك ولا نخاف منه، فنفّذه، **كما في قوله:** ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[طه:72]، إنّا راجعون إلى الله لا إلى غيره، فنحن نطمع أن يغفر لنا ربنا ما سبق من ذنوبنا وجرائمنا، بسبب أننا صرنا أول المؤمنين بالله من قومنا، وهذا يدلنا على وجود الإيمان بالله المُتيقن لديهم ويقينهم بعودتهم إلى الله، وما أعده الله لهم في دار كرامته، وفي ذلك دليل على أثر الإيمان على النفوس فإنها لا تهاب الموت، بل تستلذ به في سبيل الله!،

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 141).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 349).

وقد نفّذ فرعون وعيده فيهم وقتلهم، فكانوا في بداية النهار سحرة يناصرون الطغيان ويدعون إلى الكفر والإجرام، وفي آخر النهار مؤمنين شهداء يموتون في سبيل الله!، وجاء في بعض الآثار أنهم لما سجدوا أراهم الله منازلهم في الجنة[1]، مما جعلهم يثبتون أمام تهديد وتعذيب فرعون لهم، وانتهت القصة بهذا الإيجاز لتُدلل على قوة الحق وبرهانه عند من نظر إليه بعين التأمل والتفكر، فالسحرة الذين لديهم علم بالسحر، نظروا في أدلة ومعجزة موسى بعين التأمل فما كان منهم إلا الإيمان، بخلاف الطغاة وأصحاب الأهواء فقد منعهم الطغيان والهوى عن النظر والتأمل في أدلة الحق وبراهينه فلم يُؤمنوا به.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾، بعد أن استمر موسى في دعوة آل فرعون عدة سنوات ولم يستجيبوا له، أمره الله بأن يخرج ببني إسرائيل من مصر سرّاً في الليل، فالإسراء هو السير ليلاً[2]، خشية أن يمنعهم آل فرعون لو خرجوا نهاراً، وأخبره بأن آل فرعون سيلحقون بهم ولن يتركوهم، فخروجهم ليلاً سيعطيهم فرصة أكبر للنجاة منه.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، ولما أصبح فرعون وعلم بخروج بني إسرائيل خرج في أثرهم، بعث إلى مدن وقرى مصر من يحشر له الجنود منها ويلحقوا به لمنع بني إسرائيل من الخروج، وكان محتوى الرسالة التي بعث بها

---

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: (7/ 2428).

(2) ينظر: القاموس المحيط: (ص:1294).

فرعون وأمر جنوده بإبلاغها للناس من أهل المدن: إن بني إسرائيل جمع قليل محتقر، وشرذمة كل شيء بقيته الخسيسة[1]، وهذا القول يقصد به تحقيرهم، وأنهم لا يُساوون شيئًا في ملكه، **والغيظ**: أشد الغضب، وقد فعلوا ما أغضبنا عليهم، وهو هروبهم دون إذن منا وأخذهم بعض أموالكم، ووجب علينا جميعًا الحذر من مساعدتهم وعدم السماح لهم بالخروج، وأن نكون مُتيقظين لأفعالهم، وكان فرعون وقومه لا يعلمون أين اتجه بنو إسرائيل، فأراد بهذا الإعلان تنبيه قومه بأن يتعرضوا لهم في كل طريق يمرون به[2].

ثم قال الله: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾، فأخرج الله آل فرعون من البساتين العظيمة، وعيون الماء التي لا تنقطع عنهم، وهي الجداول التي كانوا يفتحونها من نهر النيل إلى بساتينهم، والكنوز هي الأموال التي كانوا يجمعونها في خزائنهم ولا يُنفقونها، والمقام الكريم هو المنازل الحسان[3]، والملك والمكانة التي كانوا يعيشون فيها، كل ذلك تركه فرعون وجنوده حين خرجوا منه لمطاردة بني إسرائيل؛ لأنهم هلكوا فلم يرجعوا إلى شيء مما تركوا.!

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾، **أي**: أخرجناهم مما كانوا فيه مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا لكم، وضمير أورثناها هنا عائد للأشياء المعدودة

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 232).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 130).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 118).

التي كانت مع الفراعنة، باعتبار أنها أسماء أجناس[1]، **أي:** أورثنا بني إسرائيل جنات وعيونـًا وكنوزاً في أرض الشام، مثل تلك الجنات والعيون والكنوز، فإن بني إسرائيل لم يرجعوا إلى أرض مصر بل عاشوا في سيناء فترة التيه ثم دخلوا بعدها بيت المقدس، وأما أرض مصر فقد ورثها بعد الفراعنة قوم آخرون، **كما في قوله:** ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[الدخان:28]، وهم من تبقى من سكان مصر ولم يخرجوا مع فرعون وجنوده، حيث ورثوا مُلك مصر[2]، وعاشوا في الجنات والعيون والمقام الكريم الذي كان فيه فرعون وقومه الذين هلك في البحر ولم يرجعوا إليه.

قال الله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾، **أي:** فلحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل عند شروق الشمس[3]، **وقيل:** اتّجهوا للبحث عنهم شرقاً[4]، ولا تعارض بين القولين، فقد انطلق فرعون وجنوده لملاحقة موسى وقومه عند شروق الشمس، واتجهوا للبحث عنهم شرق مصر، فأدركهم فرعون وجنوده قريباً من ساحل بحر القلزم، الذي يُسمى اليوم بالبحر الأحمر في أقصى الشمال منه، وهو يسمى اليوم بخليج السويس، ويفصل بين مصر وشبه جزيرة سيناء، ورأى كلُ جمْعٍ منهما الآخر، جمْعُ بني إسرائيل الهاربين، وجمْعُ الفراعنة المطاردين لهم، **قال بنو إسرائيل**

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 133).
(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (5/ 73).
(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 143).
(4) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 173).

لبعضهم: هذا فرعون وجنوده قد لحقوا بنا، وهذا البحر أمامنا ولا منقذ لنا منه[1]، ولا طاقة لنا بهم، وهذا من قِلة يقينهم بالله، فرد عليهم موسى الواثق بربه، **بقوله**: (**كلا**)، وهي كلمة ردع وزجر لإبطال ما سبق، **والمعنى**: لن يُدركونا، ولن يصلوا إلينا، فإن معي ربي بالتأييد والنصر، وسيدلني على طريق النجاة، وقد وعدني بذلك، **وانظر الفرق بين قول موسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، **وقول محمد** ﷺ لأبي بكر الصديق في الغار لما لحقه فتيان قريش: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:40]، فأفرد المعية وخصها بموسى دون من معه، وجمعها في حق محمد ﷺ ومن معه، وفي ذلك إشارة إلى ضعف إيمان ويقين من مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقوة إيمان ويقين من مع محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾، **الفاء** للتعقيب، **أي**: جاءه الحل من الله دون تأخير، فأوحى إليه أن يضرب بعصاه سطح البحر الذي أمامه، لتكون المعجزة متصلة بموسى ومتعلقة بفعله، ومعلومٌ أن ضرب العصا لا يفلق البحر إلا بما اقترن به من قدرة الله سبحانه، فضربه فانشق البحر وصار فيه اثنا عشر طريقًا على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء ساكنًا كالجبل العظيم[2]، وصار طريقهم في البحر يبسًا كوجه الأرض، وصار بين كل طريق وآخر طاقات ينظر بعضهم إلى بعض[3]، فتأنسوا بذلك، وإنما فصل بينهم في الطرق لشدة اختلافهم فيما بينهم حين كانوا بمصر.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 58).
(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 233).
(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 144).

وقولـــــه: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾، **أي:** وقرَّبنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه ليغرقوا فيه، و"ثَمَّ" بالفتح ظرف للمكان، والمعنى أن الله جرّأهم على اقتحام طرق البحر كما فعل بنو إسرائيل، حيث ترك الله لهم طرق البحر مفتوحةً حتى دخل آخر شخص من قوم فرعون في البحر وخرج آخر شخص من قوم موسى، فأمر الله البحر أن يعود إلى حالته، فارتطم البحر بعضُه ببعضٍ فأغرق الله فرعون وقومه، ونجّى الله موسى وقومه.

ثم ختم الله القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾، ولا شك أن نجاة موسى وقومه وهلاك فرعون وقومه بتلك الصفة آية وبرهان وحجة عظيمة على قدرة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وعلى أنه الإله الحق، وعلى صدق رسله وأنبيائه، وأن العاقبة الحسنة لهم، والنهاية السيئة لمن كذبهم وكفر بما جاءوا به، وما كان أكثر قوم فرعون بمؤمنين، لأن قلة قليلة آمنت ونجت من الهلاك وأكثرهم هلكوا بسبب كفرهم، فربك يا محمد هو العزيز الذي ينتقم من أعدائه فيهلكهم، وهو الرحيم بأوليائه فينجيهم وينصرهم على من ظلمهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن سبب العلاقة بين أهل الباطل هي المصالح الدنيوية، بخلاف أهل الحق فإن سبب العلاقة بينهم المبادئ والعقائد.

2- بيان ثقة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بربه، وأن الله ناصره ومعينه.

3- بيان قوة إيمان السحرة رغم حداثته، وثباتهم على الحق رغم تعذيب فرعون لهم.

4- بيان أن القلوب بيد الله يُصرفها كيف يشاء، فادعُ الله أن يرزقك قلبًا مؤمنًا.

5- بيان أن الطغيان من أسباب زوال الملك.

6- بيان أن العاقبة للمتقين، وأن الله ينصر عباده وإن ابتلاهم في بداية الطريق.

تفسير المقطع الرابع من سورة الشعراء

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا
فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ
وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ
﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي
خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ
صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا
تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ
لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ
يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾
تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا
لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ
أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾، الخطاب لمحمدٍ ﷺ بأن يقرأ ويقص على قومه خبر قصة إبراهيم مع قومه،

حين قال لأبيه، **واسمه** آرز، **وقيل:** تارح، وغلب عليه اسم آزر لخدمته صنمًا يقال له آزر[1]، وكان مشركًا، ويعمل في تجارة الأصنام وبيعها لقومه، وكانوا يسكنون بابل في جنوب العراق[2]، **والسؤال تهكمي**، فإبراهيم يعرف ماذا يعبدون، وقدّم ذكر قصة إبراهيم على قصة نوح مع أنها بعدها في الزمن، لوجود شبه بين قريش وبين قوم إبراهيم من بعض الوجوه، وتشابه بين صفات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبين محمد ﷺ، فإنهما لم يدعوا على أقوامهم بالهلاك، بل صبرا عليهم، فلم يُعذبهم الله بعذاب استئصال في الدنيا.

وقوله: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾، فأجابوه نحن نعبد أصنامًا، وهي المعبودات التي تُصور على شكل إنسان أو حيوان أو كواكب، وتُصنع من الذهب أو الفضة أو الحديد أو الخشب ونحوها من المواد، فنستمر في عبادتها ونلزم مكانها ولا نعدل بها شيئًا، وكانوا يجلسون قريبًا منها ويدعونها ويعبدونها من دون الله، **فكرّر عليهم السؤال بقوله:** ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾، هل تسمع هذه الأصنام دعاءكم حين تدعونها وتستجيب لكم، وهل تنفعكم حين تعبدونها أو تضركم حين تتركون عبادتها، فتركوا الجواب عن ذلك لمعرفتهم بعجزها، **وذكروا حجتهم في عبادتها، بقولهم:** ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾، "**بل**" للإضراب عما سبق، والمعنى: نحن لم نعبدها لأنها تستجيب لنا الدعاء أو تنفعنا، ولكن نعبدها

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (3/ 288).

(2) ينظر: صورة الأرض لابن حوقل: (1/ 244).

تقليداً لآبائنا وأجدادنا فقد رأيناهم يعبدونها، فعبدناها مثلهم، **فرد عليهم إبراهيم بقولــه:** ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٧٧﴾﴾، كل ما تعبدونه من الأصنام والأوثان أنتم وآباؤكم الأقدمون فإني أرفض عبادتهم وأتبرأ منهم وأعتبرهم أعداءً لي، و**"إلا"** أداة استثناء مُنقطعٍ بمعنى لكن[1]، وسبب انقطاعه أنه لا علاقة بينه وبين المستثنى منه، والمعنى: هذه الأصنام والأوثان عدو لي، أكفر بها وأتبرأ من عبادتها، لكن رب العالمين هو ربي الذي أؤمن به وأعبده وحده لا شريك له، ولا أتبرأ منه.

وقولــه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴿٧٨﴾﴾، بدأ بوصف ربه الذي هو رب العالمين، فهو سبحانه خالق الخلق أجمعين وهاديهم إلى ما يصلح أحوالهم، وعبَّر بفعل الخلق بالماضي؛ لأنه قد أتم خلقهم ونفخ فيهم الروح، وفي فعل الهداية عبّر بالمضارع؛ لأن الهداية مستمرة لا تنقطع، فكل لحظة ويوم يحتاج الخلق إلى توفيق وتسديد من الله سبحانه في كل شؤون حياتهم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴿٧٩﴾﴾، وعبّر فيهما بالمضارع؛ لأن الإطعام والسقي يحتاج إليهما باستمرار.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾، وهذا من حسن أدب إبراهيم مع ربه، فنسب المرض إلى نفسه ولم ينسبه إلى الله تأدباً مع الله، وهو خالق الخير وخالق الشر.

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 319).

وقولــه: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾، عبّــر بالمــضارع؛ لأن الإماتــة والإحياء مستمرة، خاصة إذا أدخلنا في معناها النوم والاستيقاظ منه، وحذف ياء المتكلم من الأفعال تخفيفاً من أجل الفاصلة، حتى تنتهي الآيات كلها بالنون، **فذكر إبراهيم ثمانية أفعال لله في الخلق، وهي:** الخلق، والهداية، والإطعام، والسقي، والمرض، والشفاء، والإماتة، والإحياء، ليبيّن للمشركين أن آلهتهم المزعومة لا تفعل شيئاً من ذلك، لأنها جمادات لا تملك لنفسها شيئاً، ومع ذلك يعبدونها من دون الله!.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾، وهو الذي أرجوه وأرغب إليه أن يمحو ما وقع مني من بعض الصغائر؛ لأن الأنبياء معصومون من الكبائر[1]، وحدّد ذلك بيوم الدين، وهو يوم القيامة؛ لأن ثمرتها وأثرها يظهر في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾، ثم طلب من الله أن يستمر بإمداده بالعلم والفهم طيلة حياته، وأن يُلحِقه بالصالحين، وهم الرسل والأنبياء من قبله[2].

وقولــــه: ﴿وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾، جمع في طلبه هذا بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، فسعادة الدنيا بأن يجعل له ذكراً حسناً وثناءً جميلاً في لسان من يأتي بعده إلى يوم القيامة، وسعادة الآخرة بأن

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 94).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 123).

يجعله من أهل الجنة الذين لا تنزع منهم إلى غيرهم، فإن وراثة الجنة للمؤمنين تحصل بسبب أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل لكل واحد من الجِن والإنس مقعداً في الجنة ومقعداً في النار(1)، فإن آمن دخل وأخذ مقعده، وإن كفر ورث مقعده المؤمن، وقد ورد أن أهل النار تسعة وتسعون بالمائة وأهل الجنة واحد، **كما الحديث**: **"يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟، قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، قالوا: يا رسول الله، وأيّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا، فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفـًا"**(2)، فكل واحد من أهل الجنة سيرث تسعة وتسعين مقعداً من مقاعد أهل النار، إضافة إلى مقعده.!

وقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾، كان أبوه مشركًا، فوعده بأن يستغفر له رجاء إسلامه، فلما مات مشركًا ويأس من إيمانه، تبرأ منه وقطع الاستغفار له، **كما في قوله:** ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾[التوبة:114].

وقوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧﴾، وطلب من ربه أن يجيره من الخزي ولا يفضحه يوم القيامة حين يبعث الخلائق من أولهم إلى آخرهم، **وقد جاء في الحديث**: **"يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له**

---

(1) ينظر: صحيح البخاري: (6/ 170)، برقم: (4945).

(2) صحيح البخاري: (4/ 138)، برقم: (3348).

إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟، فيقول الله تعالى: "إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟، فينظر، فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار"[(1)]، **والذيخ** ذكر الضبع الكثير الشعر[(2)] المتلوث بالدم، فأري إبراهيم أباه على غير هيئته ومنظره ليسارع إلى التبرؤ منه، ثم رمي به إلى النار دون أن يعلم من حوله أنه أبو إبراهيم، حتى لا يخزى الله إبراهيم بأبيه استجابة لدعوته هذه.

وقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾، فيوم القيامة يومٌ لا ينفع فيه المال ولا البنون للوقاية من عذاب الله مهما كان عددهم، ولا ينفع إلا الإيمان والعمل الصالح، وهل الاستثناء مُنقطع أم متصل؟ محتمل هذا وهذا، فإن جعلته منقطعاً؛ **فيكون المعنى:** لكن من أتى الله بقلب سليم هو الذي ينتفع بسلامة قلبه، وإن جعلته متصلاً؛ فيكون المستثنى منه معنى المال والبنين، وهو الغنى، **والمعنى:** يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم[(3)]، والقلب السليم هو القلب السالم من الشرك والشكوك والنفاق وسيء الأخلاق.

وقوله: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾، وقُرِّبت الجنة للمتقين، وهم الخُلَّص من المؤمنين فلا يتجشمون مشقة الذهاب إليها،

---

(1) صحيح البخاري: (4/ 139)، برقم: (3350).

(2) ينظر: الصحاح تاج اللغة: (1/ 421).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 320).

وأُظهرت النار للكفار المستحقين لدخولها، وكشف الغطاء عنها، **وفي الحديث:** **"يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، في كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها"**[(1)]، فتظهر لهم وتكون واضحة أمام أعينهم، والغاوي في الأصل هو الذي ضل الطريق، **والمقصود به هنا** صاحب الرأي الفاسد، وهم الكفار كانوا أصحاب رأي وعقيدة وتصورات فاسدة في الدنيا، وهي التي أضلتهم عن طريق التوحيد والاستقامة.

وقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾، وتقول الملائكة للكفار: أين الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها، التي كنتم تعبدونها من دون الله؟!، هل هذه الأصنام والأوثان تنجيكم اليوم من عذاب الله، أو تنجي نفسها من العذاب؟! والاستفهام توبيخي تهكمي بهم.

وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾، **"كبكِب"**، تكرار من الفعل **"كَبَّ"**، وكررت حروفه دلالة على تكرير معناه، **أي:** كبهم الله في النار مرة بعد مرة[(2)]، وهو إلقاؤهم على وجوههم وتنكيسهم على رؤوسهم في جهنم، **والمعنى:** فتلقى في النار كل الأصنام والأوثان مع عبادها من الكفار، وذرية إبليس وكل من لحق به وتجند في طاعته من الجن والإنس، فالجميع يُكبون ويُلقون على وجوههم في جهنم مرة بعد أخرى، والعياذ بالله، وفائدة إيقاع الأصنام في النار مع أنها لا تفقه ولا تحس؛ لأن رؤيتهم لأصنامهم وحضورها معهم في العذاب هو

(1) صحيح مسلم: (4/ 2184)، برقم: (2842).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1303).

احتقار لها، وأقوى شاهد على أنها لا تملك شيئًا لهم ولا لأنفسها[1].

وقوله: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾، فإذا أُلقوا جميعًا في الجحيم مع معبوداتهم، خاصم العباد الشياطين والمعبودين، وكانت رؤيتهم لها سبب للخصومة بينهم، وأقسم العباد بالله أنهم كانوا في الدنيا في ضلال واضح حين جعلوا هذه الأصنام مساوين لله رب العالمين المستحق للعبادة وحده، وفي قولهم هذا تعجب من حالهم آنذاك وتسفيه منهم لأنفسهم.

وقوله: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٢﴾، وما أوقعنا في هذا المصير السيِّء إلا كُبراء القوم من المجرمين فهم سبب ضلالنا عن اتباع الحق، **كما في قوله:** ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[الأحزاب:67]، ولا يوجد اليوم من يشفع لنا عند الله ليُنجينا من عذابه الأليم، ولا يوجد معنا اليوم صديق حميم، **والحميم:** القريب المحب لنا[2]، الذي يَصْدُق في مودتنا ويشفق علينا، فقد اكتشفوا أن صداقتهم مع بعضهم مُزيفة، ولا فائدة منها في الآخرة، بل تتحول إلى عداوة وخصومة، **كما قال الله:** ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:67]؛ لأنها قائمة على مصالح دنيوية، فإذا انتهت المصلحة، انتهت الصداقة، ثم تمنوا لو يُرجعهم الله إلى الدنيا ليكونوا من جملة

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 153).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 124).

المؤمنين بالله وما جاءت به رسله، وهم كاذبون في ذلك، **كما قال عنهم**: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾[الأنعام:28].

ثم ختمت هذه القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾، **أي**: فيما ذكر من قصة إبراهيم وقومه حجة وبرهان على وجوب الإيمان بالله، ولكن أكثر الناس لا يؤمن بالله لعدم استفادتهم من البراهين والحجج الدالة على ذلك، وذيّل الآية بذكر عزته التي قهر بها الكفار وعذبهم، وبذكر رحمته التي نجى بها المؤمنين وأدخلهم الجنة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- خطر التقليد الأعمى، وخاصة في باب العقائد والتصورات، فإنه سبب من أسباب الضلال.

2- فضل الرجاء في الله والطمع في رحمته وفضله.

3- أهمية سلامة القلب من الشرك والشكوك والحسد والبغضاء وسائر الأمراض، فهذا القلب الذي ينفع صاحبه في الدنيا فيعيش سعيداً منشرح الصدر، وفي الآخرة يكون من أهل الجنة.

4- بيان أن أهل النار يختصمون فيما بينهم عند دخولها، وكلٌّ منهم يتهم الآخر بإضلاله.

5- بيان الفرق بين صداقة المؤمن وصداقة الكافر، فصداقة المؤمن تستمر، وصداقة الكافر تنقطع.

تفسير المقطع الخامس من سورة الشعراء

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ١١٠ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢
إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥ قَالُواْ لَئِن
لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا
وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ
١٢٠ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢ كَذَّبَتۡ عَادٌ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦
وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
١٣١ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا
خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾.

قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾، يخبر الله تعالى عن قوم نوح

عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنهم كذبوا المرسلين، وهم كذبوا رسولاً واحداً، وهو نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ومن كذّب رسولاً واحداً فقد كذّب بجميع الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل[1]، **كما قال:** ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة:285]، وقوم نوحٍ من حيث الترتيب الزمني كانوا بعد آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقد مكث الناس على التوحيد بعده عشرة قرون[2]، يعني ألف سنة، ثم انحرفوا فأرسل الله إليهم نوحًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦﴾، واذكر يا محمد لقومك قصة نوح مع قومه حين قال لهم أخوهم نوح، والأخوة هنا هي أُخوة النسب، فهو منهم[3]، فمن حكمة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يُرسل كل نبيٍ من قومه ليكون معروفًا لهم، و"**ألا**" تحتمل أن تكون للاستفهام الإنكاري، ويحتمل أن تكون للتحضيض[4]، وقد صدر منه هذا القول لهم بعد أن دعاهم إلى الإيمان وكرر دعوته لهم بذلك، ورآهم مصرين على الكفر، فعلى الاحتمال الأول؛ **فالمعنى**: ما الذي يمنعكم من ما يغضب الله من الشرك والكفر بعد أن اتضح لكم بطلان ذلك، وعلى الاحتمال الثاني؛ **فالمعنى**: ألا تخشون الله بترك عبادة غيره؟!.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨﴾، **أي**: فقد بعثني الله

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 82).

(2) ينظر الحديث في صحيح ابن حبان: (14/ 69)، برقم: (6190).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 82).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 158).

تعالى وأرسلني إليكم وأنا مُتَّصفٌ بالأمانة، واتِّصاف الرسول بالأمانة مهمٌ جداً؛ لأنه مُبلّغ عن ربه لا يخون في البلاغ، فلا يُنقص منه، ولا يزيد عليه، فآمنوا بي واتركوا ما يُبعدكم عن الله من الشرك والمعاصي، وأطيعوني فيما أمرتكم به من الإيمان والأعمال الصالحة.

وقولــــه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾، ولا أطلب منكم أجراً على دعوتي لكم إلى الإيمان، فأنا أدعوكم إلى الله بدون مقابل، وأحتسب أجري عند الله، فهو الذي يثيبني على إبلاغ دعوته إلى الناس، وكرر أمرهم بالتقوى لله والطاعة له فيما يأمرهم به، وهذا التكرار بسبب أن نوحـًا مكث فيهم وقتـًا طويلاً، وهو ألف سنة إلا خمسين عامـًا، وهو يدعوهم ويُرشدهم ويذكرهم بين الحين والآخر.

وقولــــه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾، فكان رد كبراء قومه عليه: كيف نُؤمن لك وكلُ أتباعك من الناس البُسطاء والفقراء، وأصحاب المهن الرذلة، وهؤلاء في نظرنا أراذل وضُعفاء وليسوا من ذوي المكانة، والاستفهام إنكاري، وهذه شبهة المُتكبرين الذين يريدون دينـًا خاصـًا بهم، بعيداً عن دين الفقراء والضعفاء، وتجاهلوا أن دين الله للناس أجمعين، لا فرق فيه بين الغني والفقير، والضعيف والقوي، وكون الضعفاء والفقراء يسبقون الكبراء والأغنياء إلى الإيمان به، فهذا مِنةٌ من الله عليهم وفضل؛ لأنهم بعيدون عن الكِبر والطغيان الذي يمنع صاحبه من الإيمان، فرد نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على شبهتم ب**قوله:** إني لا

أعلم تفاصيل الناس وأحوالهم وأعمالهم قبل الإيمان، فهذا الأمر يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي خلقهم وقسّم الأرزاق والأحوال بينهم، وهو الذي يحاسبهم على ذلك، فلست وكيلاً عليهم، ولا أهتم بتحصيل علم ما كانوا يعملونه قبل إيمانهم، **والتعبير بلفظ:** "لو تشعرون" فيه تجهيل لهم وإرغام لغرورهم الباطل، والمعنى: لو تفكرتم قليلاً بقولكم هذا لاتضح لكم بأنه باطل، ودل على أنكم تتكلمون عن هوى ولا تشعرون بأمانة الكلمة.!!

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾، وهذا يدل على أنهم طلبوا منه أن يطردهم مثلما طلبت قريش من محمد ﷺ أن يطرد ضعفاء المسلمين حتى يُؤمنوا به، فرد عليهم بأنه لا يمكن أن يطرد المؤمنين الضعفاء من مجلسه ولا يمنعهم من الدخول في دينه، فهو مرسلٌ لهداية كل الناس، ومهمته هي البلاغ المبين وإنذار الناس أجمعين، فمن قبل النذارة وآمن فهذا الذي وفقه الله، ومن رفض وأعرض عن الإيمان فقد حرم نفسه الخير في الدنيا والآخرة.!

وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾، فلما أعياهم وأفحمهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوة الحجة، انتقلوا إلى سلاح المبطلين، وهو استخدام البطش والأذى، فهددوه إن لم ينته عن دعوتهم ويسكت عن وعظهم وإرشادهم ليصبحن في عداد المرجومين عندهم، **ومعنى الرجم فيه قولان**[1]، **الأول:** الكلام القبيح، **والثاني:** الرجم بالحجارة حتى الموت، ولا تعارض هنا بين المعنيين، فيمكن أن يستخدموهما معًا في حق نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 179).

وقولـــــه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾، فلما تأكد نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن قومه جادين في تهديده ويأس من استجابتهم، أخبر ربه بأن قومه أصروا على تكذيبه، ولم يسمعوا قوله، وطلب من ربه أن ينصره عليهم، **كما في قوله:** ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾[القمر:10]، **والفتح هو** القضاء والحكم الفاصل بينه وبينهم، والمقصود به إنزال العقوبة على من يستحقها، ولا شك أن المستحق لها هم الكفار به من قومه، وطلب النجاة له ولمن معه من المؤمنين.

وقولـــــه: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، فاستجاب الله دعاءه، ونجاه ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالناس والدواب والمتاع، التي أمره الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يصنعها ثم يحمل فيها المؤمنين من قومه، وزوج من كل صنفٍ من أصناف الحيوان؛ لكي تبقى أصولها ولا تنقرض بالطوفان، ففعل، وأغرق الله كل من لم يركب في السفينة من إنسان وحيوانٍ وانتهت حياتهم جميعاً.

ثم ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾، وفي إهلاك قوم نوح بسبب تكذيبهم بالطوفان ونجاة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه من المؤمنين بواسطة السفينة، حجة وبرهان لمن يُريد العظة والعبرة، وما أكثر قوم نوح أو أكثر أهل الأرض بمؤمنين، لغفلتهم عن تدبر تلك الآيات، وذيّل الآية بذكر اسمه العزيز؛ لبيان قهره للكفر وأهله وإهلاكهم، واسمه الرحيم؛ لبيان رحمته ولطفه بالمؤمنين ونجاتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾، عادٌ هم قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة، وهي سلسلة صحاري مُتعرجة ممتدة في الربع الخالي بين عُمان والسعودية والإمارات واليمن، ولذلك سُميت بالأحقاف، وهو الشيء المُتعرج، وهودٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخوهم من النسب، وباقي الآيات تم تفسيرها في قصة نوح قبله.

وقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، **الاستفهام** إنكاري، والريع المكان المرتفع من الأرض[(1)]، **والمعنى:** إنكم بسبب كثرة أموالكم وقوتكم صرتم تبنون مباني ضخمة على فِجاج الطرق والأماكن المرتفعة، وبناؤكم لها عبث ولا فائدة منها للناس، بل صارت مأوى للفُساق الذي يتجمعون فيها لشرب الخمر والسخرية والإيذاء لمن يمر بها، وفيه إشارة إلى أن الأمة في حال انحطاطها تعبث بالمال وتصرفه فيما يفسد المجتمع، وتحوّل وسائل الإصلاح إلى وسائل للفساد واللهو.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾، المصانع جمع مصنع وهو ما أتقن صنعه من المباني ونحوها، **وقد اختُلف في تفسيرها على أقوالٍ**[(2)]، **فقيل:** هي البِرك وصهاريج الماء العظيمة، **وقيل** القصور المشيدة، **وقيل** الحصون المانعة، ولا تعارض بين هذه المعاني كلها، فقد كانوا يفعلونها كلها، ظناً منهم

---

(1) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 96).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 95).

أن هذه المباني العظيمة تمنعهم من قدر الله وعدم الهلاك، فأنكر عليهم رسولهم الإسراف في الإنفاق على البناء كأنهم لن يموتوا، ووعظهم بترك التوغل في الترف والتعاظم في المباني فالدنيا وأهلها إلى زوال.!

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، ثم وعظهم بترك الشدة على الخلق في العقوبة، والبطش: الضرب عند الغضب بسوط أو سيف، **وجبارين:** حال من البطش، **والجبار:** الشديد في غير الحق، **والمعنى:** إذا بطشتم كان بطشكم في حالة التجبر، وهو الإفراط في الأذى[1] والظلم للآخرين، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم، وأما في الحق؛ فالبطش بالسوط والسيف جائز[2].

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾، كرر عليهم الأمر بتقوى الله وطاعة رسوله، وكرر الأمر بالتقوى في الآيتين، وعلّق الأولى بالذات المقدسة للإشارة إلى استحقاقه التقوى لذاته، وعلّق الثانية بالاسم الموصول بصلته الدالة على إنعامه للإشارة إلى استحقاقه التقوى لاستحقاقه الشكر على ما أنعم به[3] عليهم من النعم التي يعرفونها ويتمتعون به، ثم ذكر لهم بعض هذه النعم، فذكر نعم تسخير الأنعام لهم وما فيها من منفعة كبيرة لهم، وهي الإبل والأبقار والأغنام والشياه، ومنها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم، ونعمة البنين وهم الأولاد ذكوراً

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 168).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 96).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 169).

وإناثًا، وبها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم، ونعمة الجنات وهي البساتين، والعيون وهي المياه المستمرة التي لا تنقطع، وبها رفاهية حالهم واتساع رزقهم وعيش أنعامهم[1].

ثم قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾، ثم ختم وعظه لهم بخشيته عليهم إن استمروا على الكفر والإعراض عن الإيمان، وقد منحهم الله هذه النعم العظيمة، أن يُنزل الله بهم عذابًا عظيمًا بما يحصل فيه من الأهوال عقوبة لكفرهم وإعراضهم.

وقوله: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾، فكان ردهم على تحذيره ووعظه لهم باللامبالاة والاستهزاء به وبما يقوله لهم، وأنهم لا يستفيدون من وعظه لهم، وأن وجوده وعدمه عندهم سواء، **وقولهم هذا دليل** على طغيانهم وانتكاس فطرهم، ووصفوا الذي هم عليه من الكفر والشرك بالله بأنه خُلق الأولين، أي: دين آبائهم وأجدادهم وعاداتهم[2]، وهم متمسكون بها وثابتون عليها ولن يتركوها، وأن ما وعدهم به من العذاب في الدنيا أو الآخرة بسبب أفعالهم تلك فلن يحصل لهم، فكفروا بالله وأنكروا البعث والحساب واستمروا في تكذيب رسولهم فأهلكهم الله بالريح العقيم، وفي إهلاك قوم عاد حجة وبرهان لمن يريد

---

(1) ينظر: المصدر السابق: (19/ 170).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 129).

أن يـتّعظ بحـالهم، ومـا كـان أكثـر اتبـاع الأنبيـاء بمـؤمنين، وإن ربـك لهـو العزيـز القاهر المهلك للمكذبين، الرحيم بعباده المؤمنين.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيـان مجانيـة الـدعوة إلـى الله عنـد جميـع الرسـل، ويجـب أن يقتـدي ويتأسى بهم الدعاة إلى الله، فلا يطلبون مـن النـاس أجـراً علـى دعـوتهم، بل ينتظروا أجرهم من الله رب العالمين.

2- بيان فضل السبق إلى الإيمان بالله، وأنـه منّة مـن الله لا علاقـة لهـا بقـوة الشخص وضعفه.

3- بيان حرص الأنبياء والرسل على هداية قومهم وشفقتهم عليهم.

4- بيـان سـنّة الله في إمهـال الظـالمين المكـذبين، وسـنته في هلاكهـم ونجـاة المؤمنين.

تفسير المقطع السادس من سورة الشعراء

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ
فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ
مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ
بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ
لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ
يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾
فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾، **ثمودُ هم** قوم صالح، وكانوا يسكنون في جزيرة العرب ما بين المدينة النبوية وتبوك، **وتُسمى الآن** بمدائن صالح قريباً من مدينة العُلا في السعودية، **وصالح** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخوهم في النسب، وقد حثهم على الإيمان بالله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والبُعد عما يُغضب الله، وقال لهم ما قاله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه، وقد سبق تفسره.

وقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، ذكّرهم بنعم الله عليهم، والاستفهام إنكاري، **والمعنى**: أتُتركوا فيما أنتم فيه في بلدكم من النعم مستقرين آمنين من الخوف والعذاب والزوال والموت؟!، تعيشون بين حدائق وبساتين مثمرة، وعيون من المياه جارية، وزروع كثيرة متنوعة، ونخل ثمرها ناضج لين لطيف[1]، وخص النخل بالذكر مع أنه مما تشمله الجنات؛ لبيان جودة ثمرته، وتنحتون من الجبال بيوتاً ماهرين في نحتها بحيث تصير بالنحت كأنها مبنية، لأن فارهين مشتق من الفراهة وهي الحذق والكياسة[2]، ويحتمل أن تكون فارهين بمعنى أشرين بطرين، والفاره الأشر النشيط البطر[3] بالنعمة، ولا مانع من ثبوت المعنيين بحقهم، فقد كانوا ماهرين في النحت، وأشرين بطرين بنعم الله عليهم!، وما زالت بقايا مدائن صالح موجودة إلى اليوم، وهي عبارة عن

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 105).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 176).
(3) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم: (4/ 307).

غرف وبيوت منحوتة في داخل الجبال الصلبة، وهذا يدل على قوتهم وشدتهم وخبرتهم.!

وقولـــه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، كرر الأمر لهم بتقوى الله وطاعة رسوله، ونهاهم عن طاعة مجموعة من كُبراء القوم الذي تجاوزوا الحد في الكفر والمعاصي والمنكرات، وهمهم الأكبر نشر الفساد في الأرض ومحاربة المصلحين، وأعظم فساد هو الشرك بالله والدعوة إليه ومحاربة التوحيد، ووصفهم بأنهم لا يُصلحون أي: لا يُوجد في عملهم أدنى صلاح، بل أعمالهم كلها فساد وإفساد لأي شيء صالح يرونه في المجتمع.

وقولــه: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾، فردوا عليه رداً قبيحاً واتهموه بأنه رجل مسحور قد أصيب بالسُحر مرة بعد مرة[1] حتى تمكّن منه، وأنه ليس رسولاً من الله إليهم؛ لأنه بشر مثلهم في البشرية ويأكل ويشرب مثلهم، وهذه شبهة كل أقوام الرسل، فقد كانوا يزعمون أن الرسل لا تكون إلا من الملائكة، ثم طلبوا من صالح معجزة وبينة تثبت أنه رسول من الله إليهم إن كان صادقاً في دعواه.

وقولـه: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾، فدعا صالح ربه بذلك، فاستجاب الله تعالى لطلبه وأعطاه الناقة معجزة له، **وقد جاء في حديث** أبي الطفيل واثلة بن عامر، قال:

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 97).

قالت ثمود لصالح: ائتنا بآية إن كنت من الصادقين، قال: اخرجوا، فخرجوا إلى هضبة من الأرض، فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح: هذه ناقة الله لكم آية"[1]، فعلى هذا المعنى تكون المعجزة في كيفية وجودها، ويُمكن أن تكون ناقة من ضمن النياق التي خلقها الله، اختارها لهم نبيهم صالح، والمعجزة فيها بما اختصت به من صفات، وأنها تأتي بلبنٍ يكفي القبيلة كلها مع كثرتهم، وهذا لا يكون في ناقة عادية، والشِّرب الحظ من الماء[2]، **أي**: لها نصيب من الماء، ولكم نصيب منه معلوم[3]، فجعل لها موعداً تشرب فيه من العين وجعل لهم موعداً يشربون فيه من العين، فتشرب هي يومـًا، وهم يشربون يومـًا، فإذا شربت من الماء لم يشربوا منه ويسقون ذلك اليوم من لبنها، ونهاهم عن أذيتها أو الاعتداء عليها أو الإساءة إليها حتى لا يصيبهم عذاب الله العظيم انتقاماً لها، لأنها معجزة، والذي يعترض المعجزة بالتكذيب أو الأذية يُعاقَب على ذلك.

وقوله: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾، فخالفوا أمره وقتلوا الناقة، والأصل في العقر ضرب قوائم البعير بالسيف[4] حتى يسقط ثم يُنحَر، والذي

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم: (9/ 2804)، برقم: (15867)، وإسناده صحيح موقوف عليه.

(2) معاني القرآن للفراء: (2/ 282).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 130).

(4) ينظر: المصباح المنير: (ص:218).

عقرها هو قُدار ابنُ سالف[1]، **وهو** الأشقى، **ويُسمى** أُحيمر ثمود، وكان نشيطًا ذكيًا، فلم يذهب لقتلها إلا بعد أن شاورهم وأقروه على ذلك، ولذلك نسب الله الفعل إليهم جميعًا، فأصبحوا نادمين ندم خوف عند معاينة العذاب وظهور آثاره عليهم، وعند ذلك لا ينفع الندم[2]، فنزل بهم عذاب الصيحة والرجفة، فزلزلت الأرض بهم زلزالاً شديداً، وصاح بهم جبريل صيحة تقطعت منها قلوبُهم، فسقطوا على ركبهم وماتوا في ديارهم، **كما قال:** ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾[هود:67]، وفي هلاك قوم صالح حجة وبرهان لمن تأمل فيها، وما كان أكثر أقوام الرسل بمؤمنين، وربك هو العزيز في قهر الكفار، والرحيم في إنجاء المؤمنين.

ثم قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾، **قوم لوط هم** أصحاب قرى سدوم في الشام، ومكانها يُسمى بالبحر الميت، وهو بين فلسطين والأردن، ولوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو ابنُ أخي إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، هاجر معه من العراق إلى الشام، وأرسله الله إلى قرى سدوم، وأخوّته لهم ليست أخوّة دينٍ، فهو مؤمن وهم كفار، ولا أُخوّة نسب، فهو عبراني وهم كنعانيون، ولكنها أُخوّة حِلف أو سكن ومعاشره، فقد نزل في ديارهم وعاش معهم[3]، وباقي الآيات سبق تفسيرها في قصة نوح.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (8 / 225).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 130).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 178).

وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾، ثم بدأ ينكر عليهم أفعالهم القبيحة التي كانوا يفعلونها مع الكفر والشرك بالله، وهي فعلهم الفاحشة بالذكور، وهي من أعظم القبائح التي وقع فيها قوم لوط، وأُطلق عليها بعد ذلك في الفقه فاحشة اللواط نسبة إلى قوم لوط، وبسبب هذه الفاحشة ظُلم اسمُ نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتُرك التسمي به، حتى أن كتب تراجم الرجال والتاريخ الإسلامي تكاد تكون خالية من هذا الاسم، وقوم لوط قوم انتكست فطرتهم وفعلوا ما لم تفعله الحيوانات، فقد خلق الله تعالى ذكراً وأنثى في سائر المخلوقات ليتم بينهما التناكح والتناسل، فانتكست فطرة قوم لوط فنكحوا الذكور واحجموا عن نكاح الإناث، **و"مِن" في الآية لها معنيان**[1]، **الأول:** أنها بيانية، **أي:** تنكحون الذُكران من الناس، **والثاني:** فصلية[2]، **أي:** أنكم انفصلتم بهذا الفعل عن سائر العوالم، فلا يوجد فرد من عالَم المخلوقات ينكح ذكراً مثله، حتى الكلاب والحمير.! **والمعنى الثاني** أليق بهم لقبح فعلهم ومخالفتهم للفطرة، فقد تركوا ما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم من نكاح جنس النساء إلى نكاح الذكور، وما أحله لهم من الاستمتاع بالعضو المباح من النساء وهو القبل إلى نكاحهن في الدبر، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا يمارسون الفاحشة مع زوجاتهم[3]، وفي ذلك تنبيه على أن هذا الفعل الفظيع مخالف للفطرة لا يقع من الحيوان، فضلاً عن الإنسان،

---

(1) ينظر: تفسير أبي السعود: (6/ 260).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 179).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (24/ 526).

فتجاوزا بفعلهم هذا حدود الشهوة وفاقوا في القبح غيرهم من المخلوقات.

وقوله: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾، فرفضوا نصحه وردوا عليه بالتهديد والوعيد له، وهي طبيعة كل الطغاة والمجرمين، حين تسقط حجتهم مع من يحاورهم، ينتقلوا إلى استعمال القوة، فهددوا لوطًا بطرده وإخراجه من بلدهم، فلما لم ينته عن دعوتهم والإنكار عليهم اتخذوا قرار طرده مبينين سببه، كما في قوله: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[النمل:56]، فطهارته ومن معه من المؤمنين هي سبب طردهم، فالقوم نجسون، وقد بلغت نجاستهم مُنتهاها، لا يقبلون أن يبقى أحد طاهراً بينهم، وأي انتكاسة للفطر بعد هذا؟!.

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩﴾، فكان جواب لوط عليهم بقوله: إني لعملكم مبغض وكاره، وليس لدي رغبة للسكن معكم وللجلوس بينكم أيها النجسون.!، ثم أقبل على الله بالتضرع والدعاء بأن ينجيه وأهله من عقوبة صنيعهم، وهو العذاب الذي سينزل بهم بسبب عملهم القبيح.

وقوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١﴾، الفاء للتعقيب، أي: كانت نجاته عقب دعائه حيث أمره الله بالخروج مع أهله من قريتهم ليلاً، لئلا يصيبهم العذاب، كما في قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾[الحجر:65]، واستثنى من النجاة امرأته، ووصفها بأنها عجوز كبيرة في السن، كانت على دين قومها ولم تؤمن به،

فأهلكها الله معهم، والتعبير بالعجوز دليل على سواد قلبها وبُعدها عن الله، والأصل في الشيبة العجوز أن يكون قريبًا من الله؛ لأنه قريب من الموت، بخلاف الشاب الذي ما زال غاويًا طائشًا، **والغابر**: الباقي بعد ذهاب أصحابه[1]، **أي**: باقية في العذاب بعد نجاة زوجها وأهله.

وقوله: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾، ثم للتراخي، فقد حصل لهم الهلاك بعد نجاة لوط وأهله، **والتدمير هو**: الإصابة بالدمار وهو الهلاك، حيث خسف بقراهم وجعل الله عاليها سافلها وأنزل عليهم حجارة من سجيل، وسمي ما أصابهم من الحجارة مطراً لأنه نزل عليهم من الجو[2]، فبئس المطر مطرهم، لأنهم أنذروا فلم يعتبروا، وفي هلاكهم آية عظيمة يعتبر بها من يعتبر، وما كان أكثر أقوام الرسل بمؤمنين، فقليل منهم من يتعظ ويؤمن، وربك العزيز القاهر ظهرت عزته في إهلاك وقهر الكفار، وهو الرحيم بعباده المؤمنين.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستدرج الكفار بالنعم المتوالية عليهم، ثم يأخذهم بسبب كفرهم.

2 – أن الكفر والمعاصي من أعظم أنواع الفساد في الأرض، وهو أخطر من

(1) ينظر: تاج العروس: (8/ 314).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 181).

الفساد المالي والإداري، وهو الذي ينهش اليوم في جسد الأمة والناس مشغولون بما دونه من أنواع الفساد.

3- بيان قبح فاحشة قوم لوط، وأنها منكر عظيم مخالف لفطرة الإنسان والحيوان.

4- بيان أن الهداية بيد الله، وأن الله قد يبتلي بعض الأنبياء والرسل والعلماء والدعاة بانحراف وفساد بعض أهلهم، فلا لوم عليهم إذا بذلوا لهم النصح والإرشاد.

تفسير المقطع السابع من سورة الشعراء

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ
١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞
أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا
كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ
عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ
عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ
١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١
فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤
أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧
إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾، أصحاب الأيكة هم من أُرسل إليهم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **والأيك**: الشجر الكثير الملتف[1]، وهل هم قوم مدين أم غيرهم، الراجح أنهم غيرهم، وأن أصحاب الأيكة قرية أخرى بجوار مدين أُرسل إليهم شعيب كما أُرسل إلى مدين، **ومن رجَّح هذا القول من المفسرين**[2] **رجَّحه بدلالة قوله:** ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾[الحجر:79]، فأتى بألف التثنية بعد ذكر قوم شعيب، والمقصود بهما أصحاب الأيكة، وأصحاب مدين، وقد كانوا بطريق واضح، كانت قوافل قريش تمر منه في رحلتهم إلى الشام، والقرينة الثانية للترجيح أنه لم يذكر هنا لفظ أُخوّة شعيب لهم، بينما ذكر في أصحاب مدين، فقبيلته الأصلية مدين، وطُلب منه أن يدعو القرى التي حولها إلى الله كما دعا قومه، وباقي الآيات سبق تفسرها في قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾، وقد كانوا بالإضافة إلى شركهم وكفرهم مشهورين بتطفيف المكيال والميزان، فكانوا يستوفون ما لهم من الوزن والكيل، ويُنقصون الوزن والكيل إذا وزنوا أو كالوا لغيرهم، فأمرهم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإيفاء الكيل ونهاهم عن التطفيف فيه والتبرؤ ممن يفعله، وأمرهم بأن يزنوا بالعدل ويستخدموا الميزان السوي الذي لا خلل فيه ولا نقص، وفيه إشارة إلى التحذير من اللعب في إعدادات الميزان كما يفعل بعض الناس اليوم، بحيث يصير ناقصاً عند البيع لغيره وزائداً حينما يشتري لنفسه.

---

(1) ينظر: القاموس المحيط: (ص:932).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 184).

وقولــــه: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤﴾، والـبخس: الـنقص والظلـم[1]، وهـو توجيـه عـام لترك هضم حقوق الآخرين، فلا تبخس الناس أشياءهم، مثلاً: لـو طرح إنسان فكـرة جيـدة، فقلـت عنهـا: غيـر جيـدة، فهـذا مـن الـبخس، ولـو حـاورت إنسـانًا فتكلمت نصف ساعة وأعطيته عشر دقائق، هذا بخس لحقه في الحوار معه، وقلْ مثل ذلك في باقي التعـاملات مع الآخـرين، فـلا تُـنقِص مـن حقـوقهم، وتـستوفي حقـك منـهم، ولا بـد أن تكـون عـادلاً معهـم، فلفـظ "أشـياءهم" يعـم كـل هـذه الأمور، وإن كان المقصود به هنا البيع والـشراء، أي: لا تقـلْ عـن سـلعة شـخص إنها غير جيدة، أو إنها لا تسوى كذا، ظلمـًا لـه وصـرفًا للنـاس عنه، ونهاهـم عـن الفســاد في الأرض، والعــث: أشــد الفــساد[2]، والإســراع فيــه بارتكــاب الــشرك والمعاصي والمُنكرات وغيرها من القبائح، وكرر عليهم الأمر بتقـوى الله الـذي خلقهـم وخلـق الأمـم التـي مـن قـبلهم، والجِبلّـة هـي الخِلقـة[3]، أي: أفـردوا الله بالعبادة والتوحيد واحذروا عقوبته، فقد انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم.

وقولــه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾، فردوا عليه برد قبيح كما فعل من قبلهم من المكذبين للرسل،

(1) ينظر: تاج العروس: (15/ 437).

(2) ينظر: المصدر السابق: (5/ 306).

(3) ينظر: لسان العرب: (11/ 99).

والمُسحّر: المصاب بالسحر المتمكن منه حتى ذهب بعقله، وتجاوز في حقه، فنفوا عنه الرسالة لكونه بشراً مثلهم، وهي شبهة من سبقهم من المكذبين للرسل، وهي شبهة باطلة، فالحكمة من أن يكون الرسول من البشر حتى يقتدي به الناس، ولم يكتفوا بذلك، بل أتهموه بالكذب على الله، والظن هنا بمعنى اليقين، أي: نحن متيقنون بأنك كاذب فيما تدَّعي، وأنك لست رسولاً من الله، فإن كنت صادقًا في دعواك؛ فادع الله أن ينزّل علينا قِطَع العذاب من السماء فيهلكنا بها، وهذا كقول قريش لرسول الله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنفال:32]، وهو دليل على قِلة عقولهم وسفاهتها، فإن العاقل لا يقول هذا الكلام، بل يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه، فرد عليهم شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بإسناد العلم إلى الله، فهو العالم بما يفعلونه مِنَ الشرك والمعاصي، وما يستحقونه من العذاب ومقداره، فإنزال العذاب بكم ليس إليّ وإنما مرد ذلك إلى الله سبحانه.

وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾، فاستمروا في تكذيبهم لشعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولم يُؤمنوا به، فاستحقوا نزول العذاب عليهم، فأرسل عليهم الحر الشديد في ديارهم وبيوتهم حتى هربوا منها إلى البرية يبحثون عن شيء يستظلون به، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بَرْداً، وظنوا أنها سحاباً جاءتهم بالمطر، **كما في قوله**: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾، فنادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا

تحتها أسقطها الله عليهم ناراً فأحرقتهم جميعـًا»[1]، فكـان هلاكهـم بمـا طلبـوا مـن العذاب، وكان من أعظم أيام الدنيا عذابـًا، وعقّب الله على قصة هلاكهـم بـأن في ذلك عِظة وعبرة لمن أراد أن يتَّعظ، ولكن قلّ من يتعظ ويعتبر بالآيات من الأمم، وأن الله مُتصف بالعزة التي قهر بها الكفار وأهلكهم بالعذاب، ومتصف بالرحمة التي نجى بها المؤمنين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾، استأنف الحديث عن القرآن الكريم، وكان قد أشار إليه في بداية السورة، **بقوله:** ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، ثم ذكر قصص الأنبياء المماثلة وأحوال أقوامهم لحال قومه الذين كذبوه، وتوجّه بالخطاب لرسول الله ﷺ تسلية له، وأن الله رب العالمين قد أنزل عليه آية ومعجزة أعظم من آيات ومعجزات من قبله، وهو القرآن الكريم الذي نزّله على قلبه بواسطة جبريل الأمين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أمين الله على وحيه إلى كل الأنبياء والمرسلين، وأتى بحرف "على" ليناسب لفظ التنزيل، ويفيد الاستعلاء والتمكّن، **فالنبي** ﷺ كان يتلقى الوحي من جبريل ويعي ما يُوحى إليه ويحفظه، واللام للتعليل، **أي:** أنزل الله القرآن الكريم إليك؛ لتكون من عموم الرسل الذين يُنذرون أقوامهم ويدعونهم إلى الإيمان بالله وترك الكفر والشرك به، وكان نزول القرآن عليك بلغة العرب الواضحة الفصيحة، **والباء** للملابسة[2]، **أي:** أن القرآن نزل

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 121).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 190).

ملابساً للغة العرب لا ينفك عنها، والقرآن مذكور وموصوف بذلك في كُتب الأنبياء والرسل السابقين، والزُبُر جمعُ زبور وهو الكتاب السماوي الذي أُنزل على من قبله من الرسل كالتوراة والإنجيل وغيرها، فقد بشّرت الكتب السماوية السابقة بمحمد ﷺ وبكتابه القرآن الكريم.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾، **الاستفهام** استنكاري، وهو موجّه لكفار قريش المكذبين به، **والمعنى:** ألا يكفي لصدق محمد وما جاء به من القرآن وأنه من عند الله؛ أن يشهد بذلك علماء بني إسرائيل، وكفى بالعالِم شاهداً على غيره، فشهادة أهل العلم تغني عن شهادة عوام الناس، وقد بعث أهل مكة إلى علماء اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن نبي آخر الزمان، فأخبروهم بأن هذا وقت بعثته وإنهم يجدون في التوراة صفته، فكانت شهادتهم آية على صدقه ﷺ[1].

وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾، ولو نزَّل الله هذا القرآن على رجلٍ من الأعاجم غير العرب فقرأه على العرب بلغته فلن يؤمنوا به بحجة أنهم لا يفهمون غير لغتهم[2]، ولو قرأه عليهم بلغتهم العربية، فلن يؤمنوا به تكبراً في أنفسهم واستنقاصاً لشأنه[3]، كونه أعجمي من غير جنسهم،

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 348).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 127).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 479).

فقد تكبروا وامتنعوا عن اتباع محمد ﷺ، وهو من أشرفهم وأعظمهم نسبًا ومكانة، "**كذلك**" الكاف للتشبيه، واسم الإشارة يعود إلى سلوك التكذيب[1]، **والمعنى**: فمثل سلوك التكذيب والجحود الذي حصل من الأقوام السابقين لرسلهم أدخلناه في قلوب المجرمين من قريش وصار متمكنًا فيها؛ وذلك بسبب ظلمهم وإجرامهم، فلا سبيل لهم إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ حتى يعاينوا العذاب الشديد الذي وُعِدوا به، ويحتمل أن يكون العذاب المتوعد به في الدنيا أو في الآخرة، وفي كِلا الحالتين لا يُقبَل منهم الإيمان لذهاب وقته، وفي الآية إشارة وحث على المبادرة بالإيمان قبل أن يحل بهم العذاب، حيث إن نزول العذاب بهم سيكون فجأة، ولا يعلمون بمجيئه، لكنهم لم يفعلوا ذلك، بل انتظروا حتى نزل بهم العذاب فطلبوا الإنظار والإمهال وتأخير الهلاك على سبيل التحسر على ما فات من الإيمان والتمني للرجعة إلى الدنيا، لاستدراك ما فرطوا فيها[2]، فلم يجابوا إلى طلبهم ولا بصرف العذاب عنهم.

وقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾، فردّ الله عليهم طلب تأخير العذاب بالاستفهام الإنكاري، **والمعنى**: كيف تستعجلون نزول العذاب ثم إذا نزل تطلبون تأجيله، ما هذا التناقض؟! يعني هل استعجالهم مبنيٌ على قوتهم وقدرتهم على رفض العذاب والانتصار منه والنجاة منه أم ماذا؟!.

(1) ينظر: التحرير والتنوير (19/ 194).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 137).

ثم تحوّل الخطاب إلى رسول الله ﷺ، ويصلح لكل مخاطب به بعده، والاستفهام للتقرير، **والمعنى**: أعلمت إن مَتَّعناهم بالحياة سنوات طويلة وأخرّنا عنهم العذاب فترة عمرهم، ثم نزل بهم العذاب الموعود؛ ماذا يغني عنهم ذلك المتاع وذلك التأخير؟! فلن يحصل منهم إيمان؛ لأنهم لم يأخذوا بمسلك الهداية الصحيح، بل سيستمرون في التكذيب والإعراض، فيستحقون نزول العذاب بهم لكفرهم، وماذا ينفعهم ذلك التمتع بالدنيا وهم متوعدون بالنار وعذابها في الآخرة، **وفي الحديث**: "يؤتى بأنعمِ أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط"(1)، سبحان الله!! نِعم الدنيا كلها ينساها الكافر بغمسة واحدة في جهنم، وبؤس الدنيا كلها ينساها المؤمن بغمسة واحدة في الجنة، نسأل الله من فضله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان وجوب إيفاء الكيل والميزان، وأن التطفيف فيهما من الكبائر، وهو أكلٌ لأموال الناس بالباطل.

2- بيان سفاهة عقول الكفار في دعائهم على أنفسهم بالعذاب لو كان ما

(1) صحيح مسلم: (4/ 2162)، برقم: (2807).

جاء به الرسل حقاً، ولو كانوا عقلاء لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه.

3- بيان أهمية إتقان المسلم للغة العربية وأثر ذلك في فهم القرآن الكريم.

4- بيان فضل شهادة العالِم على غيره.

5- بيان أن الله سلك في قلوب المجرمين من قريش الجحود والتكذيب بالقرآن بسبب ظلمهم وإجرامهم.

6- بيان أن ما يناله الكافر من نعيمٍ في الدنيا لا يُساوي شيئًا أمام عذاب الآخرة، وما يناله المؤمن من تعاسةٍ في الدنيا لا يُساوي شيئًا أمام نِعم الله في الجنة.

تفسير المقطع الثامن من سورة الشعراء

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدۡعُ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ
﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ
مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا
يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ
وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾، **يخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه لا يُهلك أمة من أمم الكفر إلا بعد أن يبعث فيهم رسولاً يُنذرهم ويدعوهم إلى الإيمان ويقيم عليهم الحجة، فإن كفروا أهلكهم، وهذا من عدل الله وفضله وكرمه على خلقه، والحصر يدل على العموم، وأن كل من أهلكهم الله قد كذبوا رسلهم، وليس لهم حجة ولا عذر عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وسمى الرسل مُنذرين؛ لأن السياق سياق إهلاك بسبب التكذيب فاقتصر على الصفة المناسبة لهذا السياق وهي صفة الإنذار

والتخويف، والأصل أن مهمتهم الإنذار والتبشير، **كما قال:** ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[النساء:165]، **وبيّن** أن إرساله الرسل الهدف والغاية منه التذكير والموعظة وإقامة الحجة على الخلق، ونفى عن نفسه الظلم، ومنه أن يعذب أمة قبل أن يرسل إليها رسولاً.

ثم قال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾، **هذا جوابٌ على سؤال يُكرره الكفار والمشركون،** وهو أن القرآن قول كاهن، **وقال بعضهم:** إنما يجيء بالقرآن الشيطان فيلقيه على لسان محمد[1]، فكذّب الله قولهم هذا، ونفى الله عن القرآن الكريم علاقة الشياطين به، **وقد سبق أن الله وصفه بقوله:** ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾، فالقرآن كلام الله أنزله على رسوله ﷺ بواسطة جبريل الروح الأمين وحماه من الشياطين، فلم تنزل الشياطين به كما يزعم المشركون، فلا يستقيم للشياطين ولا يصح لهم تلقّي كلام الله تعالى، **لسببين، الأول:** لأن النفوس الشيطانية خبيثة بذاتها[2] فلا تقبل الخير، وعملهم كله شر محض، ولذلك ما سُموا شياطين إلا لأنهم ابتعدوا عن الخير ولم يقتربوا منه، والقرآن خير محض، فلا يقوون على سماعه ولا قوله، **والثاني:** لأنهم لا يستطيعون الوصول إليه، فقد مُنعوا من استراق السمع وحُرست السماء عند بعثة محمد ﷺ، فقد عزلوا عن استماع ما يدور في الملأ الأعلى، ومن يقترب منهم من

---

(1) أخرجه عبد الرزاق: 2/ 77، عن قتادة.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 199).

السماء ليحاول أخذ كلمة من الوحي إلى الكهنة والسحرة، فإنه يتبع بشهاب ثاقب، **كما في قوله:** ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[الصافات:10]، فيُحرقه قبل أن يأخذها أو يُوصلها لغيره، فحمى الله القرآن حال نزوله من اقتراب الشياطين منه.

وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾، **الخطاب عام** لكل مستمع له، فنهاهم عن عبادة غير الله ودعاء غير الله، ويجوز أن يخاطب الله الناس بشخص رسول الله ﷺ تحذيراً لغيره ولبيان أن العبادة لغير الله لا تحل من ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولو عبد أحد منهم غير الله لعذّبه الله، فكيف بغيرهم من الخلق، فمن فعل ذلك ومات من دون توبة؛ فقد استحق العذاب الأليم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، **وأمر الله رسوله ﷺ** بأن ينذر قبيلته القريبة منه، وهم بنو هاشم وبنو المطلب خاصة[1]، فيدعوهم إلى الإيمان بالله ويخوفهم عاقبة الكفر به، **قال ابن عباس:** "لما نزلت عليه هذه الآية، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: "**يا بني فهر، يا بني عدي**"، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟" قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقًا، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تبًا لك

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 138).

سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾[1][المسد:1-2]، وهذا الموقف من أشد الموقف على رسول الله ﷺ، فما توقع أن يأتيه الخذلان من أقرب الناس إليه، بل يطمع في نصرته، ولكنه كان سبباً في إفساد هذا الاجتماع، وتفرّق الناس عنه، ولذلك كانت عقوبة أبي لهب شديدة، حيث حكم الله عليه بالنار والخسارة والموت على الكفر هو وزوجته، وفي الآية حثّ للمسلم أن يهتم بأقاربه فيدعوهم ويُعلمهم وينصحهم، ويُبعدهم عن الشرك والمعاصي والذنوب؛ لأنهم أول من سيُسأل عنهم يوم القيامة، فإن دعاهم ولم يستجيبوا له، اشتغل بغيرهم.

وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾، "**اخفض جناحك**" هذا تعبير بليغ، المقصود تواضع لهم ولا تتكبر عليهم، تشبيه بالطائر عند هبوطه من الجو حيث يخفض جناحيه كي يحط على الأرض، والنبي ﷺ لم يكن متكبراً قبل البعثة فكيف بعدها؟!!، وإنما المقصود استمر على التواضع واللين والرفق بأمتك وأصحابك من أجل أن يقتدي بك غيرك، والاتباع المقصود بهم الذي اتبعوه في الإيمان وصدقوا برسالته وكانوا على دينه، فتواضع لهم وأظهر لهم المحبة والكرامة، وتجاوز عنهم، والضمير في "عصوك" عائد على عشيرته الأقربين، فقد أمره الله أن ينذرهم، فإن كذبوك ولم يصدقوك، كما حصل من أبي لهب وغيره، فأخبرهم أنك بريء من أعمالهم السيئة، ولذلك كان من ضمن خطاب رسول الله ﷺ لقرابته، **قوله:** "يا

(1) صحيح البخاري: (6/ 111)، برقم: (4770).

بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني هاشم، لا يأتِ الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، فإني لا أُغني عنكم من الله شيئًا"[1]، فالقرابة لا تنفع الكافر يوم القيامة، والخطاب للنبي ﷺ ولكنه يشمل كل المؤمنين، فالمؤمن عليه أن يجتهد في دعوة أقاربه وأرحامه إلى الإيمان، فإذ لم يستجيبوا له، فهو بريءٌ من معاصيهم وكفرهم، وإنما سيسأله الله عن تقصيره في دعوتهم.

وقولـــــه: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾، **هذا أمرٌ من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** لرسوله ﷺ، لأن المفاصلة مع الكفار ستؤدي إلى مشكلات معهم ومحاولة أذيته منهم، فأبو لهب لما فاصل النبي ﷺ **وقال له:** تبًا لك، لم يترك أذيته، بل اشتغل طول عمره يُحذر من رسول الله ﷺ ويؤذيه، فهو محتاجٌ في مثل هذه الأحوال إلى الاعتماد على الله والتوكل عليه من أجل أن يحميه وينصره على هؤلاء الذين فاصلهم بسبب كفرهم، وذيّل الآية بـ **(العزيز)** الذي فيه معنى القهر والقوة على الكفار، و**(الرحيم)** الذي فيه معنى اللطف والإحسان بالمؤمنين، ووصف نفسه سبحانه بأنه يرى رسوله ﷺ في كل أحواله وحركاته وسكناته، وأنه تحت علمه وإحاطته، وأنه يؤيده ويسدده ويوفقه، فهو يراه حين يقوم بين يدي الله مصليًا ومستغفراً وداعيًا ومُنذراً ومبشراً، ويراه حين يسجد مع الساجدين ويصلي مع المؤمنين جماعة[2] لله رب العالمين، وحين تنقلاته بين أركان الصلاة، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة استشعار العبد مراقبة الله له، وأنه مُطّلع على أعماله كلها

(1) صحيح البخاري: (6/ 111)، برقم: (4771).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 139).

فيزداد إخلاصًا واتقانًا لها، **وذيّل الآية باسميه** (السميع، العليم)، كتعليل لإحاطة علمه بالعبد فهو سميعٌ لأقواله، عليمٌ بأفعاله وأحواله.

ثم قال سبحانه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾، **هذا بيان للنفي السابق، في قوله:** ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾، فالشياطين لا تتنزل بالقرآن ولا تقترب من الأنبياء والرسل، بل تهرب منهم وإنما تتنزل الشياطين على كل أفاك أثيم، وهم السحرة والكهنة الذين يرتبطون بهم بسبب كفرهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، و"**أفاك**" صيغة مبالغة من الإفك وهو أعظم الكذب، و"**أثيم**" صيغة مبالغة من الإثم وهو الوقوع في الذنب العظيم، فإن الشياطين كانت تسترق السمع من الملأ الأعلى ثم يأتون إلى الكهنة والسحرة فيلقون الكلمة المسموعة في آذانهم، ويحتمل أن يكون إلقاء السمع هنا بمعنى الإصغاء الذي يقوم به الكاهن[1]، حيث يُصغي بسمعه إلى الشيطان ليحصل على كلامٍ اختطفه من الغيب، وأكثر الكهنة كاذبون فيما يدعونه من علم الغيب، لأنه يضيف على الكلمة التي سمعها من الشيطان مائة كذبة، ثم ينشرونها، **كما جاء في حديث عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "سأل رسول الله ﷺ ناس عن الكهان، فقال: "**ليس بشيء**"، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانًا بشيء فيكون حقًا، فقال رسول الله ﷺ: "**تلك الكلمة من الحق، يخطفها من الجني، فيقرها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة**""[2].

(1) ينظر: المصدر السابق: (4/ 139).

(2) صحيح البخاري: (7/ 136)، برقم: (5762).

وقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾، بعد أن نفى علاقة الشياطين والكهنة بالقرآن الكريم تحدّث عن طبيعة الشعر والشعراء، وكان المشركون يزعمون أن للشاعر شيطاناً يملي عليه الشعر، وكانوا يتهمون محمداً ﷺ بأنه شاعر، فأبطل قولهم ونفى أن يكون محمد ﷺ شاعراً، أو أن يكون القرآن شعراً، ثم بيّن حال عموم الشعراء من **الكفار الذين كانوا يحاربون الإسلام مثل** عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وغيرهم[1]، فقد كانوا يستغلون موهبتهم في الشعر في إغواء الناس وصرفهم عن الحق، وكانوا يعقدون المجالس لهجاء النبي ﷺ، وكان المشركون يحضرون هذه المجالس ويستمعون لهم، والغاوون هم المُنحرفون عن طريق الهداية والاستقامة، فيتبعونهم ويتأثرون بشعرهم ويُجادلون به أهل الإسلام، والهائم هو الذاهب على وجهه[2]، **وشبّه الله حال هؤلاء الشعراء** بالإبل الهائمة في الوديان التي تنتقل من وادٍ إلى آخر، فالشعراء يهيمون في أودية الشعر، ويتنقلون بين الكذب والزور، وبين المدح والذم، والغزل والتشبيب بالنساء، والطعن في الأنساب، ونحوها، تبعاً لأهوائهم أو لطلب من يموّلهم بالمال، فليس لهم مبادئ يثبتون عليها، وما يقولونه لا يفعلونه، فشعرهم كله كلام لا يطبق في الواقع، وهذه طبيعة في أكثر الشعراء، ويُشبههم اليوم بعض الناشطين والإعلاميين في وسائل

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 147).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (6/ 246).

التواصل الاجتماعي، الذين يمدحون ويذمون تبعًا للعطاء والمصالح الشخصية.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾، **واستثنى الله من هذه الأوصاف الشعراء المؤمنين الصالحين** كحسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك[1]، وأمثالهم من شعراء الإسلام قديمًا وحديثًا الذين يناصرون الدعوة، ويدافعون عن الإسلام، فللشاعر الصادق مكانة في الإسلام، **فقد كان النبي ﷺ يقول لحسان بن ثابت: "اهجُهم وجبريل معك"**[2]، **أي**: يؤيدك وينصرك، فكان شعره أضر عليهم من السهام؛ فالشعراء المؤمنون بالله الصادقون في شعرهم المدافعون عن دين الإسلام، هؤلاء لا يتبعهم الغاوون وليسوا في كل وادٍ يهيمون، فهم بعيدون عن الكذب، وأصحاب مبادئ لا يبيعون ولا يشترون في شعرهم، ولا يمدحون بدون حق ولا يذمون بدون حق، لأن هذا ليس من العمل الصالح، ولم يشغلهم قول الشعر عن ذكر الله، ولم يجعلوا الشعر همهم، بل يقولون الشعر وقت الحاجة، وغالب أوقاتهم يشغلونها بذكر الله، ولسانهم رطب بذكر الله كثيراً، وقولهم الشعر في ذم الآخرين إنما هو رد للباطل وانتصار للحق؛ لأن شعراء المشركين هم من يبدأ بالهجاء، فكان شعراء الإسلام يردون عليهم هجاءهم وظلمهم، بعد أن أذن الله لهم بذلك.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 151).

(2) صحيح البخاري: (4/ 112)، برقم: (3213).

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾، أيْ وسيعلم الكفار من الشعراء وغيرهم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا غيرهم بأخذ حقوقهم، حين يرجعون إلى الله ويقفون بين يديه، أي مصير سيّء سيلاقونه؟! وترك تبيينه بعقاب معين لتذهب نفوس الموعودين به في كل مذهب، ولا شك أنهم سيُبعثون خائفين مُعذبين وجلين ذليلين، ثم ينقلبون إلى جهنم وبئس المصير.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- تنزيه القرآن عن اقتراب الشياطين منه واستراق السمع عند نزوله على محمد ﷺ.

2- خوف الشياطين من سماع القرآن الكريم، ولذلك أعظم علاج للسحر والمس هو الرقية الشرعية بالقرآن.

3- بيان فضل التواضع من الداعية لمن حوله حتى يقبلوا منه النصح والتوجيه.

4- بيان أن الشعر كلامٌ حسن، حسنُه حسن، وقبيحُه قبيح.

5- بيان حال الشعراء غير المؤمنين بالله، وأنهم لا مبادئ لهم ثابتة يدافعون عنها بصدق.

تفسير جزء النمل

(20)

تفسير سورة النمل

تفسير المقطع الأول من سورة النمل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ
فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى
ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم
بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ
رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا
وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا
وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾.

شخصية السورة:

سورة النمل؛ سورة مكية[1]، ومن مقاصدها الامتنان على النبي ﷺ بنعمة

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 178).

الرسالة وإنزال القرآن الكريم عليه، والحث على شكرها وتبليغها والصبر عليها.

وابتـــدأت بقولـــه: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾، **طس**: من حروف الهجاء التي لا معنى لها، **وإنما ذكرها الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للدلالة على بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، فإنّه مكوّنٌ من هذه الحروف التي يتكلّم بها العرب ولم يستطيعوا أن يأتوا بشيءٍ من مثله.

و"**تلك**" اسم إشارة، يعود على آيات القرآن، واستخدم هذا اللفظ للدلالة على بُعد مكانتها وعظمتها، **والمعنى**: هذه آيات القرآن الكريم والكتاب المبين، المنزّلة على رسول الله ﷺ، وأضاف الآيات إلى القرآن والكتاب المبين للتفخيم والتعظيم لها، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه(1)، وهذه الآيات بيّنة المعنى، واضحة الدلالة، لا لَبس فيها ولا غموض، فمن تدبّرها وعمل بها أرشدته إلى طريق الفوز والفلاح، وبشّرته بحسن العاقبة والثواب العظيم في الدنيا والآخرة.

وقولـــه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾، ووصف المؤمنين بأنهم يُحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها وبأركانها وشروطها، ويُعطون صدقاتهم للفقراء والمحتاجين، لأن السورة مكّية والزكاة المفروضة ذات الأنصبة فُرضت في المدينة، ووصفهم بأنهم أصحابُ يقينٍ بالدار الآخرة وما فيها من بعثٍ ونشورٍ وحسابٍ وجنةٍ ونارٍ، فالمشركون في مكة كانوا يجحدون اليوم الآخر ولا يُؤمنون بالبعث والنشور.

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 346).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾، بعد أن ذكر وصف المؤمنين أتبعه بذكر وصف الكافرين، وهذا من طرائق القرآن وأساليبه، من أجل أن يُقارن القارئ بين الفريقين، فبيّن أن الكفار لا يصدقون بالدار الآخرة وما فيها من بعثٍ ونشورٍ وحسابٍ وجنةٍ ونارٍ، وهي العلامة الفارقة بينهم وبين المؤمنين، حسّن الله لهم ما هم فيه من الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، **كما قال:** ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾[فاطر:8]، فيعملونها على أنها أعمالٌ صالحة، والتزيين يكون من الشيطان ومن النفس الأمارة بالسوء، ونُسب إلى الله؛ لأنه الخالق والفاعل والمُدبر لما في الكون، **والعَمَه:** هو التحيّر والتردد[1]، فجعلهم يستمرون في فعل الأعمال السيئة وهم متحيرون مترددون فيها، وعبّر بصيغة المضارع؛ لأن العَمَه متجدد مستمر فيهم، فلا يفكرون بالصواب لأنهم يظنون أنهم على صواب.! وتوعّد من اتصف بهذه الأوصاف القبيحة من الكفار بأشد العذاب وأعظمه، **وللمفسرين فيه قولان، الأول**[2]: أنه عذاب في الدنيا يُصيبهم، كالقحط والجوع في مكة، والقتل والأسر يوم بدر، **والثاني**[3]: أنه عذاب جهنم في الآخرة، ولا مانع من اجتماعهما معاً لمن مات كافراً، ووصف حالهم بالآخرة بالخسارة المطلقة، وهي دخولهم النار والخلود فيها، فإنها الخسارة العظمى، والعياذ بالله، حيث خسروا النجاة ودخول الجنة.

---

(1) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (6/ 2242).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 591).

(3) ينظر: تفسير القرطبي: (13/ 155).

ثم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، فبعد التنويه بالقرآن ومكانته، انتقل إلى التنويه بالذي أنزل عليه، فقد أعطاه الله القرآن، وتلقاه وحياً بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من عند الله الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، والعليم بأسرار الأمور وبواطنها، فأفعالُه كلها صواب لا خطأ فيها ولا خلل،! وأحكامه كلها عن علم لا جهل فيها ولا زلل،! وفي ذلك إشادة بالقرآن الكريم، ودقة ما فيه من قصص وأحكام فكلها حق؛ لأنها من الحكيم العليم، ومن ذلك ما سيذكره من القَصص والأحكام في هذه السورة.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾، واذكر يا محمد قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع زوجته التي رجع بها من مَدين بعد أن جلس يرعى الغنم لأبيها عشر سنوات، فلما انتهت المدة خرج بها باتجاه فلسطين، وفي ليلة شاتية مظلمة باردة رأى ناراً بعيدةً عنه، وهو في الحقيقة نور شديد الإضاءة، وهو عبارة عن كرامة خاصة بموسى، ولذلك لم تره زوجته، وحصل في نفسه الأُنس والطمأنينة به، والإيناس: الإحساس من جهة يؤنس بها(1)، فأمر زوجته بانتظاره في مكانها حتى يذهب إلى مكان تلك النار، والسين تدل على بعد مسافة النار عن مكان انتظار زوجته(2)، لكي يأتي منها بخبر عن الطريق الصحيح الذي ضلّ عنه من الشخص الذي أوقدها، فإن لم يجد فيها أحداً يدلّه على الطريق الصحيح؛ أتاهم بشعلة نار،

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 194).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 146).

مأخوذة من أصلها المشتعل من أجل أن يوقد بها ناراً أخرى يستدفئون بها من شدة البرد.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾، فلما اقترب من مكان النار وجد نوراً، وإنما سمّاه الله ناراً؛ لأن النار لا تخلو من النور؛ ولأن موسى ظنها ناراً[1]، وكان هذا النور في شجرة خضراء شديدة الخضرة[2]، فنظر إليها فسمع صوتًا يُناديه أن الله قد بارك مَن وُجد في موضع النار، **والمقصود به** موسى والملائكة الذين كانوا في ذلك المكان[3]، **والبركة** هي الخير الكثير، فبسبب ذلك النور وتكليم الله لموسى فيه؛ حلّت البركة في كل شيءٍ من ذلك المكان، وسُمّي بالوادي المبارك، وانتشرت البركة منه في أرض الشام كلها، ونزّه الله نفسه عما لا يليق به سبحانه، وهو رب العالمين، ومالك الخلق أجمعين، الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبه شيئًا من مخلوقاته، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾، نادى الله موسى النداء الثاني، وكان صريحًا أنه من الله سبحانه، لأن النداء الأول لم يُسمَ فاعله، فقد يكون من الله أو من الملائكة، فتعرّف إلى موسى بأنه الله المستحق للعبادة وحده، العزيز القادر القوي الذي لا يُغلب، الحكيم الذي لا خلل في فعله وأمره، وذكرهما

---

(1) ينظر: تفسير السمعاني: (4/ 78).

(2) ينظر: تفسير العز بن عبد السلام: (2/ 457).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 429).

كتمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة.

وقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾، ثم أمر الله موسى أن يرمي عصاه التي كانت بيده والتي كانت معه أثناء رعيه الغنم في مدين، وقد أخذها معه لتكون رفيقاً له في سفره، فرماها إلى الأرض، فتحوّلت إلى ثعبان شديد الحركة، و"**الجان**" ذَكَرُ الحيّات سريع الحركة، **وجاء في آية أخرى وصفها بقوله**: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[الشعراء:32]، **أي**: ثُعبان بيّن في شكله وخلقته، وهنا وصف سرعة حركته، فلما رآها موسى بهذا الحال تركها خلفه وهرب بعيداً عنها، ولم يرجع إليها من شدة الخوف المجبول عليه البشر في مثل هذه الأحوال، فناداه الله ونهاه عن الخوف، فالذين اختصهم الله برسالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، وهذه قاعدة مُطلقة، فمن أرسله الله فقد ضمن له السلامة، وأن الله سيعصمه من أعداءه حتى يبلّغ الرسالة، ويجب أن يكون قلبُه ممتلئاً باليقين والتوكل على الله سبحانه، وفي هذا الحدث تربية وتأهيل لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لحمل الرسالة بالصبر والتحمّل ورباطة الجأش؛ لأنه سيتعرّض لمواقف شديدة مع فرعون وقومه، و"**إلا**" هنا يحتمل أن تكون مُنقطعة[1]، بناءً على أن الأنبياء معصومون من الكبائر، وهو قول جمهور العلماء[2]، ويكون المقصود بالظلم هنا فعل الكبائر، **والمعنى**: لكن من ظلم

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 180).

(2) ينظر: الشفاء للقاضي عياض: (2/ 171).

نفسه من غير المرسلين، ثم تاب وحسُنت توبته فإن الله يغفر له، **ويحتمل** أن تكون مُتصلة[1]، **والمعنى**: لا يخاف لدي المرسلون إلا من حصل منه ذنب ولم يتب منه، أما من تاب وبدل حسناً فلا يخاف، فإن الله يغفر له، ويكون المقصود بالظلم هنا فعل الصغائر، بناءً على أن الأنبياء غير معصومين من المعاصي الصغيرة، ولكنهم لا يُصرون عليها، بل يتوبون منها[2]، **وفيه إشارة** إلى ما حصل من موسى قبل أن يخرج من مِصر من قتل القبطي، وقد فعل ذلك خطأً وجهلاً، وقد تاب منه.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾، وأمره بأن يُدخل يده في فتحة ثوبه التي تكون في الصدر مما يلي الرقبة، ثم يخرجها ففعل، فإذا هي بيضاء تتلألأ نوراً ليس فيها مرض ولا أذى، فلم يخف موسى؛ لأنه قد تطمن في الوعد الإلهي السابق له، فهاتان آيتان من ضمن تسع آيات أعطاها الله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأرسله بها إلى فرعون وقومه، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته، وهي[3]: العصا، واليد، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والطوفان، والسنين، ونقص الثمرات، وبيّن سبب إرساله إليهم بأنهم قد بلغوا في الفسق منتهاه، وأعظم أنواع الفِسق هو الشرك والكفر بالله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 173).

(2) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: (4/ 319).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 124).

وقولـه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾، فلما جاءهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بهذه الآيات البيّنات الواضحات التي يراها كل ذي عينين، واحدة بعد أخرى، لم يصدقوا بها، وكذبوا موسى، واتهموه بأنه ساحر أتاهم بسحر واضح، وأنكروا هذه الآيات ولم يقروا بأنها من عند الله، والجحود لا يكون إلا بعد المعرفة[1].

وكان جحودهم لها ظلماً لأنفسهم وعلواً وترفعاً عن الإيمان والإقرار بها بألسنتهم، وهم يعلمون أنها من عند الله، وأنها ليست سحراً، ولكن في واقع حالهم ونطق ألسنتهم يُنكرونها، وهذا يدل على أن اليقين بالقلب مع الجحود والإنكار باللسان لا ينفع، ولا يكون صاحبه مؤمناً، وهذا حال كثير من المجرمين الذين يعرفون الحق ولكنهم لا يُقِرون به لمصالح وأهواء دنيوية، والخطاب لغير معيّن، والاستفهام للتعجيب، ويجوز أن يكون الخطاب للنبي محمد ﷺ، تسلية له بما حلّ بالمكذبين بالرسل قبله، وتعريضاً بتهديد المشركين المكذبين به[2]، وبهذا الكلام الموجز أنهى قصة هلاك فرعون وقومه.!

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 179).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 233).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان مكانة القرآن وعظمته، وأنه سبب لهداية المؤمنين وبشارتهم.

2- بيان أن الكفار يعيشون في حيرة واضطراب في أفكارهم وتصوراتهم.

3- بيان مكانة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عند ربه، وإكرامه له بالكلام معه.

4- بيان فضل وبركة الأرض التي كلّم الله بها موسى وما حولها من أرض الشام.

5- بيان أن من طبيعة الإنسان الخوف مما يُؤذيه، وأن الفرار منه مما فطر الله الأنفس عليه.

تفسير المقطع الثاني من سورة النمل

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
(١٥) وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ
عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ
ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا
أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (٢١) فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ
وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ
عَظِيمٞ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ
فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ
سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ
مَاذَا يَرۡجِعُونَ (٢٨) ﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾، يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيّه محمد ﷺ قصة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذُكر داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيها توطئة لها، وافتتاح الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطبين بها منزلة من يتردد في تصديقها[1]، ونكّر لفظ العلم ليشمل كل العلوم التي يحتاجون إليها من علم الأحكام الشرعية الدينية، وعلم سياسة الناس في الأحكام السلطانية وإدارة شؤون الحكم، وأخبر عن ثنائهما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنهما نسبا ذلك العلم وذلك العطاء إلى الله وحده، فحمداه عليه، وأقرّا بأن ما أعطاهم الله من النبوة والملك وسائر النعم التي خصهم الله بها إنما هو تفضلّ منه سبحانه، وبها حصل لهم الفضل على غيرهم من عباد الله المؤمنين الذين هم أهل مملكتهما، وعبّرا بـ"كثيرٍ من عباده" تواضعاً لله[2]، وهل قالا ذلك سراً أو جهراً؟ محتمل هذا وهذا، فإن كان جهراً؛ فهو من الحديث بنعمة الله شكراً لها لا تكبراً على الخلق بها.

قـال الله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾، لما تُوفي داوود؛ ورث ولدُه سليمان علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، حيث تعلّم من أبيه ما عنده من العلم، مع ما كان عليه هو من العلم وقت حياة أبيه[3]، وإنما خص سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بوراثته؛

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 234).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 235).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:602).

لأنها وراثة نبوة وملك، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء[1]، وقد قام سليمان خطيباً في الناس، لأن لفظ "يا أيها الناس" لا يكون غالبًا إلا في مجمعٍ عام، فأعلن لهم ما منّ الله به عليه من النعم، تحدثًا بها وإشهاراً لها وشكراً لله عليها، ودعاء الناس إلى تصديقها، **ومنها**: تعليم الله له لغة الطير، فيفهمها، وذكر هنا الطير وهو نموذج لباقي الحيوانات، بدليل أنه سمع وفهم كلام النملة وهي ليست من جنس الطير.

و"**كل**" هنا لا تُفيد العموم المطلق، وإنما تُفيد عموم ما يحتاج إليه من أسباب الملك ومن أدوات السلطة والقهر ما لم يُعطِ أحداً من الناس، وصار ما خصهم به من الخير تفضلاً وكرمًا منه واضحًا لعموم للناس.

وقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾، وأمر سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قادة فرق جيشه أن يجمعوا له جنود مملكته من الجن والإنس والطير في مكان واحد، **فذكر ثلاثة أنواعٍ من الجنود، وهم: الجند الخفي**؛ وهم الجن، وهؤلاء يستخدمهم في الأمور الشديدة البعيدة، **والجند الظاهر**؛ وهم الإنس، وهؤلاء يستخدمهم في الحرب والأعمال الظاهرة التي يقدرون عليها، **والجند المساعدون**؛ وهم جنس الطير، وهؤلاء يستخدمهم في الرسائل والأخبار وجمع المعلومات ونقلها، وهو جزء مما يُسمى اليوم بـ"عمليات الدعم اللُوجستي"، فلما جمعوا كل فرقة من الجيش

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 198).

مع بعض في ساحة الاجتماع، نظموا سيرهم وعرضهم عليه؛ بحيث يمشون على دفعات، فيُكَفّ أولهم حتى يلحق بهم آخرهم، **والوزْعُ في أصل اللغة** هو المنع والكَف[1]، **وفائدة ذلك** انتظام سير الجنود ومنعهم من الفوضى، كما تُشاهدون اليوم في العروض العسكرية الرسمية للدول، حيث يعرضون كل نوعٍ من الجنود وأسلحتهم مع بعضٍ بصورةٍ منتظمة، وفي الآية إشارة إلى أن من واجبات القيادة العناية بالجنود وتدريبهم وتأهيلهم، وقد انطلق بهذا الجيش باتجاه مكانٍ مُعيّن، وقد مرّوا في طريقهم على وادي النمل، وهو اسم موضعٍ في الأرض، وسُمي بوادي النمل؛ لكثرة النمل الذي يعيش فيه[2]، وأثناء مرور الجيش كان النمل على ظهر الأرض كعادته في النهار، فلما رأت نملةٌ الجيشَ، ولعلها مسؤولة الاستخبارات في مملكة النمل، صاحت بأخواتها من النمل ادخلوا إلى بيوتكم، وابتعدوا عن طريق سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وجيشه حتى لا تدوسكم أقدامهم، دون قصد منهم، فتتكسر أضلُعكم وتهلكوا!.

والحَطْمُ في اللغة هو تكسير الشيء الصلب[3]، وهذا التصرف من النملة يشير إلى أن النمل أمة من الأمم ومملكة من الممالك، فيها الملكة، والحرس، والعاملون، والخزنة، والصناع، ونحوها من الوظائف، مثل عالم البشر، واعتذرت لسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وجنوده، بأنهم قد يفعلوا بهم ذلك الفعل غير

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 112).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 240).

(3) ينظر: القاموس المحيط: (ص:1094).

متعمدين، بل من غير شعور منهم؛ لأنهم قوم مسلمون عادلون لا يظلمون أحداً.

وقوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾، تبسم تعجب، والتبسم أضعف حالات الضحك، وهو الضحك الهادئ، (وكان هدي النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه إذا ضحك تبسم)[1]، فإن الضحك بالقهقهة والصوت المرتفع ليس من أخلاق الأنبياء والصالحين، وتدل على خفة العقل وسوء الأدب، وكان تبسم سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتعجبه من فطنة وذكاء هذه النملة الحريصة على بني جنسها، ومن معرفتها باسمه، واعتذارها لهم، ومدحها له ولجنوده بالعدل وعدم الظلم، وبسماعه لكلام النملة تذكر نعم الله عليه ودعا الله أن يلهمه ويوفقه إلى ملازمة شكر هذه النعم العظيمة المتعددة التي منحها الله له ولوالديه من قبله. **وفي قوله:** "وعلى والدي" بيانٌ لِبر الابن بأبيه عند الدعاء، فيدعو لنفسه ويدعو لوالديه، وفيها إشارة إلى أن النعمة هذه لم تكن وليدة الساعة، وإنما كانت امتداداً لنعم الله على أبيه، ودعا ربه أن يوفقه للعمل الصالح المرضي عند الله، وهو الموافق للشرع والخالص لوجه الله، ويرزقه الاستمرار عليه.

والباء في "برحمتك" باء السببية، **أي:** اجعل رحمتك سبباً لدخولي الجنة في جملة عبادك الصالحين من الأنبياء والمرسلين، وسؤاله ذلك؛ المراد به

(1) مسند أحمد: (34/ 466)، برقم: (20917)، وسنن الترمذي: (6/ 38)، برقم: (3642)، والحديث حسن لغيره.

الاستمرار والزيادة من رفع الدرجات، لأن لعباد الله الصالحين مراتب كثيرة[1]، وبهذا الدعاء العظيم تظهر اهتمامات أنبياء الله وعباده الصالحين، فإن العبد يخشى على نفسه من الابتلاء بالنعم والسراء أكثر من الابتلاء بالشر والضراء، فقد يصبر العبد على الابتلاء بالضراء، ولا يشكر على الابتلاء بالسراء.!

وقوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾، وبعد أن استقر في المكان الذي سافر إليه؛ تفقّد أحوال جنوده، و"**التفقّد**" هو البحث عن المفقود، وطلب ما غاب عنك والتعرّف على أحواله[2]، وهذا يدل على حسن الإدارة وقوة المتابعة لدى سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهي من أهم صفات القائد الناجح، بخلاف حال كثير من ولاة الأمر اليوم الغافلين عن أحوال الرعية، فالسلطة تكليف لا تشريف، ومسؤولية يجب القيام بها، فلم يرى الهدهد، لأنه صاحب لون جميل وشكل فريد، إذا غاب يُنتبَه له، وهذا كحال بعض طلاب العلم يكون ذكياً ومشاركاً في الدروس والبرامج، فلو غاب يفتقده الأستاذ، بخلاف الكسالى يغيب أحدهم فلا يُفتقد؛ لأنه غير جاد ولا نشيط، فسأل سليمان من حوله عنه، هل هو موجود ولم أره، أم هو غائب عنا؟! وهذا من دقة سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الخطاب وتثبته، فلمّا تأكد له أنه غائب عن هذا الجمع، **أصدر تهديداً له وتوعّده بأحد أمرين، الأول:** بالعذاب الشديد، وهو نتف ريشه،

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 244).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 152).

وتركه ملقى يأكله الذر والنمل[1]، **والثاني**: أن أقتله بالذبح، وذلك بناءً على سبب الغياب، **واستثنى إيقاع العقوبة به** إن أتاه بحجة وعذر مقبول، وهذا من عدله، وفيه إشارة إلى أهمية وجود قوانين وعقوبات صارمة للمخالف، وهو أمر لا بد منه لإدارة المجموعات والتجمعات والجيوش، وعدمها يؤدي إلى الفوضى، وتضييع الوقت والجهد وفساد الأعمال وانتشار البطالين والمزعجين وقليلي الأدب.!

وقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، **المُكث في اللغة** هو اللَّبْثُ والانتظار[2]، **أي**: فجاء الهدهد ولم يتأخر غيابه كثيراً.

والظاهر -والله أعلم- أنه لم يحضر إلا وقد بلغه التهديد والوعيد بسبب غيابه، ولذلك جاء بحجته من أجل أن يُعفى عنه، فخاطب الهدهد سليمان قائلاً له: علمتُ شيئًا من جميع جهاته، وجئتك بأمر لم تخبرك به الجنُ، ولم تعلم به الإنس، وبلغتُ ما لم تبلغه أنت ولا جنودك[3].

فانظر إلى قوة عبارة الهدهد مقابل قوة تهديد سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له، وهذا

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 185).

(2) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (1/ 293).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 202).

يدل على صدقه في عذره، بخلاف الكاذب في عذره، فإنه يتلعثم بالكلام ويحاول أن يخترع له عذراً، وجئتُك من أرض مملكة سبأ باليمن بخبرٍ مهمٍ صادقٍ لا شك فيه، والباء فيه للمصاحبة؛ لأن النبأ كان مصاحباً للهدهد حين مجيئه[1]، **فسأله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ما هو؟ فأجابه:** بأنه وجد امرأة؛ وهي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان[2]، ملكة قوم سبأ، قد أُعطيت من كل شيء مما يحتاجه الملك من المال والجنود وسائر والعلم ونحوها، ولها سرير عظيم في وصفه تجلس عليه للحكم بين الناس، وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم[3]، وما زالت آثاره باقية إلى اليوم في محافظة مأرب في اليمن، فهذا هو الجانب الأول من الخبر، وهو ما يتعلق بالوصف الدنيوي للملكة وعرشها وما لديها من وسائل الملك، والجانب الثاني من الخبر وهو ما يتعلق بالجانب الديني، فقد وجدها وقومها مشركين يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله، بسبب تحسين الشيطان ذلك لهم، فصدهم بهذا التحسين عن سبيل التوحيد والإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم لا يهتدون إلى معرفة الحق الصواب، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾، **يحتمل** أن يكون هذا

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 252).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 186).

(3) ينظر: المصدر السابق: (6/ 187).

من كلام الهدهد، ويحتمل أن يكون تعقيباً من كلام الله على الخبر[1].

و"**ألَّا**"، **فيها قراءتان**[2]، **بالتشديد**؛ وتكون بمعنى لئلا، **أي**: فصدهم الشيطان عن الهداية لئلا يسجدوا لله، **وبالتخفيف**؛ فتكون "ألا" للتنبيه، **والمعنى**: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله، والخبء كل ما غاب[3]، وهو الشيء المخفي، وفسّر خبء السماء بالمطر، وخبء الأرض بالنبات[4]، **والصحيح** أنه عام في كل ما ستره الله عن الأعين في السماء وفي الأرض، وهو مدحٌ لعلم الله المحيط بالمخفيات التي لا يطلع عليها أحد، وهو سبحانه يعلم ما يسّر الخلق وما يعلنون من الاعتقادات والأقوال والأفعال، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وهو الله الذي لا إله غيره ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش العظيم، وهو سرير الملك، وهو أعظم المخلوقات، فعرش الله عظيم بالنسبة إلى سائر ما خلق الله من السموات والأرض، وعرش بلقيس عظيم بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك[5]، فسَلِمَ الهدهد من العقوبة حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم، وتعجّب سليمان كيف خفي عليه[6]، ولما كان الهدهد داعياً إلى

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 254).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 448).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 116).

(4) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 601).

(5) ينظر: المصدر السابق: (2/ 601).

(6) ينظر: تفسير السعدي: (ص:604).

الخير، وإلى عبادة الله وحده والسجود له، نهى النبي ﷺ عن قتله[1].

وقوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فلما سمع سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الخبر من الهدهد؛ استخدم أسلوب التثبت لمعرفة صدق الخبر الذي نقله إليه من عدمه، والنظر هو التأمل والتصفح، وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار، والكشف عن الحقائق، وعدم قبول خبر المخبرين تقليداً لهم، واعتماداً عليهم[2]، فكتب سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كتاباً وختَمَه بخاتمه[3]، وأمر الهدهد أن يذهب به إلى قوم سبأ، فحمل الهدهد الكتاب بجناحه كما هي عادة الطير، وطار إليهم حتى دخل إلى قصر الملكة بلقيس، ووصل إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها وابتعد عنها قليلاً تأدباً[4]، كما أوصاه بذلك سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وانتظر جوابهم عما طُلب منهم في الكتاب، حتى يرجع به إلى سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الأنبياء والرسل أكثر الناس شكراً لنعم الله عليهم.

2- بيان أهمية تفقّد الراعي لأحوال الرعيّة، ومعاقبة المسيء منهم، وتحفيز

---

(1) ينظر: سنن أبي داود: (4/ 538)، برقم: (5269)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 157).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 216).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 188).

وتكريم المُحسن منهم.

3- بيان أن بعض العلم قد يكون عند الأصاغر دون الأكابر، فالهدهد أحاط بعلم ليس عند سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

4- بيان فضل الدعوة إلى الله، وفضل من نشرها.

5- بيان مشروعية التثبت، وأهميته لكشف الواقع وبيان الحقيقة.

6- بيان مشروعية تتبع أخبار الأمم المخالفة للمسلمين، والسعي في دعوتهم وإرشادهم.

تفسير المقطع الثالث من سورة النمل

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ
تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ
ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ
إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ
خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم
مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ
مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ
أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ
أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن
قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ
فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، بعد أن ألقى الهدهد إلى ملكة سبأ بالرسالة التي أرسلها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إليها وإلى قومها، وقرأتها، جمعت الملأ من قومها، وهم كبار القوم وحاشية الملك والمستشارون في القصر، فأخبرتهم بما وصلها من كتاب بواسطة الهدهد، ووصفت الكتاب بأنه جليل المقدار، وهو مدحٌ له بسبب ما رأته من عجيب أمره، كون طائر أتى به، فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً[1]، **وقيل**: لأنه كان مختوماً[2]، ولا تعارض بين المعنيين، ثم قرأته عليهم، وبيّنت مصدر الكتاب، وأنه من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، أكبر ملوك الأرض في زمنه، ولا شك أنه قد شُهر أمره في الممالك التي حوله، وأن الكتاب مُفتتح بالبسملة، وفيه النهي لهم عن العلو والتكبر عليه، وأن يبقوا على حالهم التي هم عليها، وأن ينقادوا لأمره ويدخلوا تحت طاعته، ويأتوا إليه مستسلمين خاضعين لحكمه، وأن يدخلوا في دينه الذي هو الإسلام[3]، وأن يتركوا الشرك بالله وعبادة الشمس، فاحتوى ما طلبه منهم على مقتضيات الملك، وهو الدخول في طاعته وتحت مملكته؛ لأنه ملك، ومقتضيات النبوة، وهو الدعوة إلى الإسلام وترك الشرك بالله؛ لأنه نبي.!

وقوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾، فلما أطلعتهم على محتوى الرسالة؛ طلبت منهم المشورة حول ما تضمنه

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 188).

(2) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 291).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص:604).

الكتاب من طلبات، والفتوى هي طلب الحكم في شيءٍ مُشكِلٍ[1]، والأمر هو الشأن الجديد الذي وصل إليها، **والمعنى**: ما هو التعامل المناسب مع هذه الطلبات، هل نطيع ونستسلم، أم نرفض ونُقاتل؟، ثم وصفت حالها بأنها لا تنفرد في الرأي في إدارة شؤون المملكة، وإنما تشاور كِبار قومها، ولا تقطع أمراً ذا شأن خطير من أعمال الملك والسلطة والحكم والسياسة حتى يقولوا لها رأيهم فيه.

وقولـــه: ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾، **فردوا عليها بقولهم**: نحن أولوا قوة في العدد والعدة، وأولوا بأس شديد عند الحرب واللقاء، لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا وبلدنا ومملكتنا، وهذا الكلام منهم يُشعِر بأنهم يُريدون القتال، وأنهم رافضين الاستسلام والخضوع لطلب سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنهم فوضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها، وقوة عقلها، لتختار أحد الرأيين القتال أو المسالمة، وهذا يدل على أنهم أصحاب رأي مستقل عنها، وكانوا مع ذلك أصحاب طاعة وانضباط لما يصدر منها، ويظهر من هذا الموقف أن الشورى عندهم لم تكن ملزمة للملكة.

وقوله: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾، هذا الكلام قالته توطئة بين يدي رأيها المخالف لما أشاروا به عليها، وهو القتال، **والمعنى**: لو كان سليمان مِلكًا وقاتلناه وانتصر علينا ودخل مملكتنا لأفسدها علينا؛ لأن من طبيعة دخول الملوك إلى بلدان الآخرين بعد

(1) ينظر: لسان العرب: (5/ 3348).

هزيمتهم أن يغيروا النظام ويُتابعوا ويحاكموا رموزه ويجعلوا كبار القادة والساسة أذلة في السجون والمعتقلات، وهذا أمر معروف ومشهور في الحروب، فهذا الفعل لا يُستبعد أن يحصل لنا لو هُزمنا مع سليمان، فبررت اختيارها للمسالمة بحرصها على بلدها، وأنها يمكن أن تُضحّي بالكرسي والملك من أجل سلامة ورخاء شعبها، وهذا يدل على أنها كانت امرأة عاقلة ذكيّة فطنة، بخلاف حال الكثير من الملوك الذين يُقدمون البقاء في الكرسي على سلامة الشعوب،! وفي ذلك إشارة إلى أهمية الاستفادة من تجارب الآخرين؛ وكلما كان الحاكم مُطلعًا على التاريخ والأحداث والوقائع، ومستفيداً من تجارب الآخرين؛ كلما كان ناضجًا في رأيه مصيبًا في تصرفه.

وقوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾، ثم أخبرتهم بما توصّل إليه رأيها، وأنها تريد أن تتأكد إن كان سليمان يريد ملكًا ومالاً؛ فستُغريه بالمال ويتركها وشأنها، ويكون ذلك المال على صورة هدية كبيرة ومغرية، واللفظ القرآني يدل على أنها كانت من الذهب والمجوهرات ومعها بعض الهدايا، وقد كانت مملكتها من أغنى الممالك في ذلك الوقت، وتختار مجموعة من رجال قومها العُقلاء ليوصلوا تلك الهدية إلى سليمان، ثم تنتظر حتى يرجع من أرسلتهم بالهدية لمعرفة جواب سليمان وموقفه من الهدية، فوافقوا على هذا الرأي واستحسنوه، وكان رأيًا رشيداً، فأرسلت الهدية مع مجموعة من رجال قومها العُقلاء، واكتفت بها، ولم تُرسل جوابًا مكتوبًا بما طلبه منهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾، ويظهر أن الهدهد كان قد أعلمه بما اتفقوا عليه، فما جاء الوفد إلا وعند سليمان خبرهم، فلما وصل الوفد بالهدية إلى سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قال لهم: تُريدون أن ترشوني بالمال وتبقون على كفركم وشركم بالله، وبعيدين عن الخضوع لحكمي، فما آتاني الله من النبوة والملك والمال والجواهر أفضل وأكثر مما عندكم، قد أعطاني الله منها ما لم يعطه أحداً من العالمين، وأكرمني بالنبوة، وهدفي أن يدخل الناس في الإسلام، والملك الذي أنا فيه وسيلة لتحقيق ذلك الهدف، وأنتم أصحاب دنيا تفرحون بالمال وتستكثرون منه، وتنقادون للهدايا والتحف، أما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف[1]، وهذا توبيخ لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء، وفيه إشارة إلى أن فرحه باستجابتهم لدعوته وإيمانهم بالله أكثر من فرحه بالمال، ثم خاطب رئيس الوفد بأن يرجع إلى الملكة وقومها، وأن يخبرهم بأنه رفض الهدية، وعليهم أن ينفذوا ما طلبه منهم في كتابه الذي أرسله إليهم مع الهدهد، فإن أبوا ذلك؛ فليستعدوا لمقابلة جنود لا يقدرون على مقاومتهم ولا طاقة لهم بقتالهم، وسيهربون من أمامهم وسيخرجون من بلادهم أذلة مهزومين.!، وهو ما حذرتهم منه بلقيس لمعرفتها بطبيعة الحرب وآثارها،! فلما عاد إليها الوفد بموقف سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الهدية، وعزمه على قتالهم؛ استجابت لطلبه، وأعدت العُدة للذهاب إلى

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 191).

فلسطين لإعلان الخضوع لسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والدخول تحت أمرته.!

وقوله: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾، فلما بلغ سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خبر قدومها إليه لإعلان الولاء والطاعة له، طلب ممن حوله من كبار رجال دولته من الجن والإنس أن يأتوه بعرش بلقيس الذي وصفه له الهدهد وأنه عرش عظيم، قبل أن تصل ومن معها إليه طائعين خاضعين منقادين لحكمه، وكان سليمان في الشام وبينها وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهابًا وشهران إيابًا، ولعل الغرض من ذلك أن يُظهر لملكة سبأ ما عنده من القوة والإمكانيات، وأن ما أعطاه الله أكثر مما عندها، وأن يريها آية معجزته في نقل عرشها إليه ليجعل ذلك حجة عليها لإثبات نبوته[1].

وقوله: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾، **قال له ماردٌ قويٌّ شديدٌ من أفراد الجن:** أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذي تجلس فيه للحكم بين الناس، وكان يجلس فيه من الغداة إلى نصف النهار، وإني لقويٌّ على حَمْله، أمينٌ على ما فيه من الجواهر[2]، **فقال سليمان** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: أريد أعجل من ذلك، **فقال له آصف** كاتب سليمان، وكان

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 463)، التفسير البسيط: (17/ 235).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 192).

صدّيقًا يعلم اسم الله الأعظم[1]: أنا آتيك به قبل ارتداد أجفانك إذا تحرَّكَتْ للنظر في شيء، فأذن له سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعا الله، فلم يشعر سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا والعرش حاضر أمامه ومستقر بين يديه، فلما رآه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ شكر الله على هذه النعمة ونسبها إلى الله وحده، ولم يغتر سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بملكه وسلطانه كما هو حال كثير من الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختباراً من ربه له، فهل يشكر الله عليها وينسبها إلى واهبها وهو الله، أم يكفر بها فينسبها إلى نفسه، ثم بيّن أن هذا الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه[2]، فمن شكر نعمة الله زاده الله منها وكتب الله له أجر الشكر، ومن كفر بها ضرّ نفسه، فإن الله غني عن شكره، ولا يضره كفره، وكريم في ترك المعاجلة بالعقوبة له بسبب إعراضه عن الشكر[3].

وقوله: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١﴾، **قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لمن حوله:** غيّروا لها سرير ملكها، وأدخلوا عليه بعض التعديلات من زيادة ونقص؛ كي نختبر به عقل المرأة لنرى أتهتدي إلى معرفته أم تكون من الذين لا يهتدون إلى ذلك؟! فإن عرفت أنه سريرها فهذا يدل على ذكائها وفطنتها، وإن لم تعرف فهو دليل على غفلتها.

---

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: (9/ 2886)، برقم: (16381)، وفتح القدير للشوكاني: (4/ 161).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:605).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (24/ 557).

وقولـه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾، فلما عُرض عليها عرشها، **وقيل لها:** أهكذا عرشك؟! فنظرت إليه وجعلت تعرف وتنكر، وعجبت من سرعته[1]؛ فأجابت بلفظ موافق للسؤال، كأنه هو، **أي:** يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم[2]، فكان جوابها صحيحاً؛ فدل ذلك على ذكائها وفطنتها ورجاحة عقلها، فلما سمع سليمان ومن معه جوابها، ورأوها قد آمنت وأسلمت قالوا ذلك؛ اعترافاً بنعمه في أن آتاهم العلم وهداهم للإسلام قبلها[3]، **وفي الآية** إشارة إلى أهمية وفضل اجتماع العلم والفطنة والدين الصحيح لدى العبد، وأثر ذلك على حياته.

وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾، **هذا تعقيبٌ** قرآني على القصة، فالمرأة كانت ذكية وفطنة وعاقلة، ولكن عقلها وذكاؤها لم يهدها إلى عبادة الله وحده، فالعقائد الباطلة تُذهب بصيرة القلب ونور العقل! فمَنَعَها عن عبادة الله وحده ما كانت تعبده مِن دون الله تعالى، لأنها وُلدت بين قوم كافرين ونشأت بينهم، ولم تعرف إلا عبادة الشمس[4]، فعبدتها معهم.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾،

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 247).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 194).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1330).

(4) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 507).

فلما وصلت إلى مكان قصر سليمان، وكان قد بُني بطريقة غير معهودة في مملكة سبأ، فقد جعل في ممر القصر ومدخله جدولاً من الماء، وغُطّي بالزجاج الأملس الشفاف، فيظهر لمن رآه الماء دون الزجاج، وهذا من بديع الصناعة التي اختصت بها قصور سليمان في ذلك الزمان، ولم تكن معروفة في اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة في البناء[1]، **وقيل لبلقيس:** ادخلي ساحة القصر، فلما رأته ظنته ماءً يمشي، فرفعت ثوبها حتى لا يتبلل بالماء، وهذا يدل على أنها كانت تلبس ثوبًا سابغًا ساترًا، فلما فعلت ذلك؛ **قيل لها:** هذا زجاج أملس شفاف فوق الماء، ولا تحتاجين أن ترفعي ثوبك، فبهرها ما رأت من آيات، وعلمت منها أن سليمان صادق فيما دعاها إليه، وأنه مؤيد من الله تعالى، وعلمت أن دينها ودين قومها باطل، فاعترفت بأنها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس، وأعلنت أنها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، والإسلام هو دين جميع الرسل، وسكت القرآن عن بقية خبرها ورجوعها إلى بلادها، واقتصر على مكان العبرة منها والاتعاظ بحال هذه الملكة، إذ لم يصدها علو شأنها وعظمة سلطانها عن النظر في دلائل التوحيد وصدق الرسل والاعتراف بالوحدانية لله سبحانه، وفي قصتها توبيخ للمشركين من أهل مكة، وفضح لسخافة أحلامهم وبقائهم على الشرك بعد أن جاءهم الحق ببعثة محمد ﷺ.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (19/ 275).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- من آداب الرسائل والمكاتبات أن تُفتتح بالبسملة.

2- استحباب إظهار عزة المسلم أمام أهل الباطل.

3- أن الفرح بالمال والمناصب وتقديمها على الدين صفة من صفات الكفار.

4- بيان يقظة المؤمن الصادق في إيمانه أمام تعدد نعم الله وتذكر وجوب شكرها.

5- بيان جوز اختبار ذكاء الخصم لمعرفة كيفية التعامل معه.

6- بيان استحباب إبراز التفوق المادي والمعنوي أمام الخصم.

تفسير المقطع الرابع من سورة النمل

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ
﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ
تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾
وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ
ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ
تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ
أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا
عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، **يُخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات عن قصة نبي الله صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، وهم قوم ثمود، وقد سبق أن ذكر قصة سليمان

قبلها، وفي الترتيب الزمني متأخرة عنها، ويظهر أنه ذكرها بعدها للترتيب الجغرافي، فقوم سبأ كانوا في جنوب الجزيرة، وقوم ثمود كانوا وسط الجزيرة، فذكرهما لأنهما قريبتان من قريش وآثارهما موجودة بين أيديهم، والفائدة من ذكر قصص الأنبياء هي التسلية لرسول الله ﷺ حينما كذّبه قومه، والتذكير للمكذبين بأخذ العظة والعبرة منها، حتى يتركوا التكذيب كي لا يصيبهم العذاب كما أصاب المكذبين من الأمم السابقة، وصالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخو ثمود من النسب، وكان محتوى رسالته كرسالة الأنبياء والرسل قبله وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فلما دعاهم إلى ذلك؛ انقسموا إلى فريقين: فريق آمن به، وفريق كفر به[1]، فالمؤمنون كان أغلبهم من الضعفاء كعادة أتباع الرسل، والكافرون به كان أغلبهم من الكبراء، وكانوا يتجادلون فيما بينهما، وكل فريق منهم يدعي أن الحق معه[2]، فكان ذلك سبباً لتخاصمهم.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾، **وكان مما قاله صالح لقومه** الكفار على سبيل الاستنكار والتعجب من حالهم: لماذا تُبادرون إلى استعجال نزول العذاب بسبب كفركم، قبل أن تُبادروا إلى طلب العافية والرحمة بالإيمان بالله وحده؟، **والمعنى:** لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 255).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 123).

يجلب إليكم العقوبة؟[1]، **وقيل**: لماذا تُبادرون إلى فعل السيئات من الكفر والشرك وفعل المعاصي وتتركون فعل الحسنات[2]؟، وكلا المعنيين وارد ولا تعارض بينهما، فإنهم كانوا مستمرين في فعل المعاصي والكفر، وكانوا مُستمرين في استعجال العذاب على سبيل الاستهزاء والتحدي؛ لأنهم كانوا يظنون أن صالحًا غير صادق، وأن تهديده لهم غير واقع بهم، ودعاهم إلى الإيمان والتوبة مما هم فيه، وطلب المغفرة من الله لأفعالهم القبيحة، وحثّ على ذلك لكي يرحمهم الله بقبول التوبة ومغفرة ذنوبهم السابقة ورفع العذاب عنهم.

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾، فكان رد قومه على دعوته لهم للإيمان والاستغفار قبيحًا، فقالوا: لقد أصابنا هذا الشر من شؤمك وشؤم أصحابك[3]، وهذا من سوء عقيدتهم وقلة أدبهم مع الرسل، فإن التشاؤم والتطير من عقائد المشركين الذين لا يُؤمنون بالله ولا يتوكلون عليه، ومن قلة الأدب أن تنسب الشر والمصائب التي نزلت بك إلى غيرك وأنت سببها، وليس هذا مذهب قوم صالح، بل هو مذهب عامة المشركين، وهذا يدل على انتكاس فطرهم حتى جعلوا الصلاح سببًا للشؤم، والفساد سببًا للخير!، وكان قد أصابهم القحط[4] ونزل بهم الفقر والبلاء، ومثله

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 165).
(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1333).
(3) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 258).
(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1333).

ما تسمعونه اليوم من عددٍ من الفاسدين الذين يجعلون الصالحين سبباً لما نزل بهم من مصائب وفقر، ونسوا أن الإنسان الصالح سبب للخير، وهو من يدعوهم إلى التوبة والاستغفار، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ليرفع الله ما نزل بهم من البلاء بسبب هذه الذنوب، فرد عليهم نبيهم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قولهم هذا، بأنه ومن معه ليسوا سبب شؤمهم، وأن ما أصابهم من خير أو شر فمن الله[1]، وأن سبب ذلك هو كفرهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الشيطان هو الذي يفتنهم بما يفعلونه من الطيرة[2]، وما ألقاه في قلوبهم من عقائد باطلة.

وقوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾،

الرهط: من الثلاثة إلى العشرة، أو من السبعة إلى العشرة[3]، وهو هنا وصف للعدد، **أي**: مجموعة مكونة من تسعة أشخاص، وكانوا من عظماء القوم وأغناهم، وكانوا أهل كفر قد تمرسوا على الفساد والإجرام، وعملهم كله شر وفساد، ولا يوجد للصلاح مدخلٌ إلى قلوبهم، فقد بلغوا في الشر والفساد مبلغه، وكانوا أصحاب قدار بن سالف عاقر الناقة[4]، وكانوا من أفخاذ متنوعة من القبيلة، وليسوا من أسرة واحدة، **ومن شدة غيظهم على صالح** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ عقدوا

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 123).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 165).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 372).

(4) ينظر: تفسير القرطبي: (13/ 215).

اجتماعـًا سـريـًا وتعاهـدوا علـى أن يـشتركوا في قتـل صـالـح وأهلـه، وهـذا مكـر بحيث لو انكشفوا فيوزع دمه بين القبائل، فترضى قبيلة المقتول بالدية، كما نصح إبليس بهذا قريشـًا لما أرادوا أن يقتلوا محمداً ﷺ، **والبيات**: مباغتة العدو ليلاً[1]، **أي**: يقتلونه وأهله غدراً في الليل بحيث لا يراهم أحد، واتفقوا على أن يقولوا لقبيلته وأوليائه بعد قتله: ما شهدنا ولا حضرنا وقت هلاكه مع أهله، ويحلفون لهم بأنهم صادقون في قولهم هذا، وقولهم هذا يحتمل أنه مغالطة منهم مع اعتقادهم أنهم كاذبون، ويحتمل أنهم قصدوا وجهـًا من التعريض ليخرجوا به عن الكذب، فإنهم قصدوا أن يقتلوا صالحـًا وأهله معـًا، ثم يقولون: ما شهدنا مهلك أهله وحدهم، وإنا لصادقون في هذه الفقرة فقط، لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معـًا[2].

وقولـه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾، وسمّى الله هذا التدبير منهم مكراً؛ لأنه سيء وخطط لتنفيذه سراً، وقابل الله مكرهم بمكره سبحانه بهم، والمكر ليس من صفات الله المطلقة، بل هو من الصفات المقيّدة أو صفات المقابلة، **فيقال**: يمكر بمن يستحق المكر.

وفي تفسير مكرهم ومكر الله تعالى بهم قولان[3]: **أحدهما**: أن الله أنزل على

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 372).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1334).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 220).

بيت صالح ملائكة ليحفظوه من سفهاء قومه حين دخلوا عليه ليقتلوه، فرمى كل ملك منهم رجلاً منهم بحجر حتى قتلوهم جميعًا، وهم لا يشعرون بالملائكة، وسَلِمَ صالح وأهله من مكرهم.

والثاني: أنهم مكروا بأن أظهروا سفراً وخرجوا فاستتروا في غار ليعودوا في الليل فيقتلوهُ، فألقى الله صخرة على الغار فأهلكتهم جميعًا، وكان هذا مكر الله بهم أن جعل مكرهم سببًا لإهلاكهم، فرجع مكرهم على أنفسهم من دون شعور منهم.!، **والخطاب عام** لكل ناظر متأمل في القصة، **أي**: انظر ما انتهى إليه أمرهم الذي بنوه على المكر، وما أصابهم بسببه من هلاك، فقد أهلكهم بتلك الصفة، وأهلك الله قومهم بالصيحة بعد ذلك، حيث صاح بهم جبريل صيحة خلعت قلوبهم فهلكوا جميعًا.

وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾، **أي**: قد تهدمت جدرانها على سقوفها ولا يوجد فيها من يسكنها؛ لأن الله أهلك أهلها بالصيحة، فهلك من كان فيها من الرجال والنساء وسائر السكان بسبب ظلمهم، وأعظمه الكفر والشرك بالله، فنهاية الظلم وخيمة، وعاقبته أليمة، وهذه البيوت المشار إليها في الآية هي مدائن صالح، وآثارها باقية إلى اليوم، وقد مر بها رسول الله ﷺ حين خرج إلى غزوة تبوك وقال لأصحابه: **"لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما**

أصابهم"[1]، **وذيّل الآية** ببيان العظة والعبرة مما حصل من هلاك لهؤلاء الظالمين، ففي ذلك برهان وحجة لقوم يتدبرون وقائع الله في أوليائه وأعدائه فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز[2]، وهو الذي حصل لصالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن آمن به من قومه، فقد نجاهم الله بسبب إيمانهم بالله واتقائهم للشرك والمعاصي ولكل أسباب غضبه سبحانه.

وقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾، كان قوم لوط في الشام قريبًا من فلسطين، فالترتيب لذكر القصص كان جغرافيًا لا زمنيًا، واذكر يا محمد لوطًا حين أنكر على قومه فعل الفاحشة، وهي الفعلة الشنعاء التي تستقبحها العقول والفطر والشرائع، وقد كانت انتشرت الفاحشة فيهم انتشار الهشيم في النار، وكانوا يفعلونها وهم يعلمون قُبح هذا الفعل ومخالفته للفطرة، ومع هذا كانوا مصرين على فعلها، أو كانوا يجاهرون بها ولا يستترون[3]، ولا مانع من اجتماع المعنيين، فلا تعارض بينهما، فقد كانت مشهورة ومُعلنة وظاهرة بينهم، مما يدل على فساد فِطرهم وانتكاستها، وبيّن نوع الفاحشة التي كانوا يرتكبونها، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، حيث أصبح الرجل

---

(1) صحيح البخاري: (1/ 94)، برقم: (433).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص:606).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 221).

ينكح الرجل، ويشتهي ذلك الفعل منه، ولا يشتهيه من زوجته؛ لانتكاس فطرته وفسادها، وفعلهم هذا سببه أنهم قوم يجهلون عاقبة هذا الفعل القبيح عليهم في الدنيا والآخرة، أو أراد بالجهل هنا السفاهة والمجون والفساد الذي كانوا عليه(1)، وقد كان حالهم يشبه حال الغرب اليوم، وما تسمعونه من أخبار انتكاس فطرهم وانتشار الشذوذ بينهم، حتى إنهم أطلقوا على هذا الفعل اسمًا ليّنًا آخر لستر قبحه وحتى يُنشر إعلاميًا، وهو (المثليين)، وهو تزوّج الرجل من الرجل، والمرأة من امرأة، بل تجاوزوا ذلك إلى إباحة زواج الرجل أو المرأة بالحيوان،! ولهم علَم خاص بهم، وجمعيات تُدافع عنهم، وقوانين تحميهم في بعض الدول الغربية.

قال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾، فما كان لقوم لوط من جواب على ما وعظهم به نبيهم إلا قول بعضهم لبعض: (أَخْرجوا آل لوط من قريتكم)، بسبب أنهم لا يشاركونهم فيما يرتكبونه من الفواحش، بل ينكرون عليهم ارتكابها، ويتنزهون عن فعل هذه القبائح لطهارتهم وبعدهم عن النجاسات المعنوية والحسية، وقولهم هذا هو نوع من الاستهزاء بنبي الله لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه، وهو يدل على سفههم وجهلهم بعواقب أفعالهم القبيحة، وهو ثمرة لانتكاس فطرهم، وهذا المنطق القبيح موجود اليوم عند الفُسّاق، فإذا وُجدوا رجلاً صالحًا في حيٍّ من الأحياء يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ تجمّع المجرمون

(1) ينظر: تفسير الرازي: (24/ 562).

والفساق لمحاولة أذيته وطرده من ذلك الحي، ليخلوا لهم الجو لممارسة الفساد بدون اعتراض عليهم.

قال الله: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾، فأهلك الله قوم لوط، ونجّى لوطًا وأهله المؤمنين به، وهما ابنتاه، واستثنى من النجاة زوجته التي كانت على دين قومها، وكانت تنقل إليهم الأسرار وتدلهم على الأخبار[1]، **والغابر في اللغة** هو الباقي[2]، **أي:** قضينا عليها بأن جعلناها من الباقين في العذاب، فهلكت مع قومها، حيث أرسل الله عليهم حجارة من سجيل من السماء أهلكتهم وقضت عليهم، فبئس المطر الذي نزل على هؤلاء القوم الذين أنذرهم رسولهم فلم يقبلوا الإنذار، فكانت عاقبتهم وخيمة، وقبل أن يُمطروا بالحجارة رفع جبريل بجناحيه قراهم إلى عنان السماء، وجعل عاليها سافلها، ولم نقف على دليل صحيح لرفع جبريل قراهم، ولكن الواقع يُشير إلى صدقه، فإن مكان قراهم تحول إلى حفرة عميقة، تُسمّى اليوم بالبحر الميت.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – أن الاستغفار من أسباب نزول الرحمة وذهاب العذاب.

2 – أن التشاؤم والتطير من أخلاق الكفار والمشركين وأتباع المشعوذين.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 200).

(2) ينظر: تاج العروس: (13/ 187).

3 – أن المكر السيّء لا يحيق إلا بأهله.

4 – أن فعل المعصية في الظاهر وإعلانها أقبح وأخطر أثراً على الفاعل من فعلها سراً.

5 – أن الواجب على أهل الصلاح والخير أن يُنكروا على أهل المُنكر، وأن يصبروا على أذاهم.

6 – أن الإنسان إذا انتكست فطرته حسّن القبيح وقبّح الحسن.

7 – أن رابطة الإيمان أقوى من رابطة الزوجية والقرابة والروابط الدنيوية كلها.

تفسير المقطع الخامس من سورة النمل

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا
كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا
وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ
﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

قـــول الله تعـــالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾، **أمر الله رسوله محمداً** ﷺ أن يحمد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهلاك الأمم المكذبة بالرسل الذين سبق ذكرهم، وسلّم الله على عباده الذين اصطفاهم للنبوة والرسالة، ويدخل فيهم أتباعهم المؤمنون بهم[1]، وذلك لرفع ذكرهم وإعلاء شأنهم، ولسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب، والسلام إذا كان على غائب فهو دعاء، وإن كان على حاضر فهو تحية، والسلام من الله على خلقه هو الثناء عليهم والذكر الحسن لهم[2]، **ثم سألهم سؤالاً استنكاريًا تعجبيًا:** آلله الذي ذكرت أفعاله وصفاته الدالة على عظيم قدرته خير، أم ما يشركون به من الأصنام؟!، **ولفظ:** "خيرٌ" ليس معناها هنا التفضيل؛ لأنه لا مقارنة بين الله وبين الأصنام، بل هو من باب التهكّم بهم، وتبكيتهم وتعنيفهم، إذ لا خير فيما أشركوا أصلاً[3].

وقوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠﴾، **أم:** هي المنقطعة التي بمعنى: بل، وتفيد الاستفهام مع الإضراب الانتقالي من الاستفهام الحقيقي التهكّمي إلى الاستفهام التقريري، ومن المقدّمة الإجمالية إلى الأدلة التفصيلية[4]، فبدأت الآيات في التدليل على بطلان الشرك واستحقاق

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 168).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 8).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1336).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 10).

الله وحده لا شريك له للعبادة، فمن خلق السموات والأرض، وأنزل المطر وأنبت الشجر، وهذه أفعال يُقر الكفار بأن فاعلها هو الله سبحانه، فإن الأصنام لا تفعل شيئًا من ذلك، واللام للاختصاص، **أي:** خصكم بإنزال المطر، وأنبت به الحدائق، وهي البساتين متنوعة النباتات والأشجار الكثيرة، وجعلها ذات منظر حسن، فيراها الإنسان فتبتهج نفسه وتتسلى بمنظرها الجميل، وفي الآية سبق علمي، فقد اكتشف الطب الحديث أن النظر والتمتع بالحدائق الخضراء الجميلة يبهج النفس ويذهب ما بها من الضيق والاكتئاب، ولو كان الأمر موكولاً إلى الخلق لما استطاعوا أن ينبتوا شجرة من أشجارها، ولكن الله هو الذي أنبتها بتهيئة أسباب الإنبات كلها، ثم سألهم سؤال تقريع وتوبيخ على ذلك، فكيف تعترفون بأن هذه الأفعال لا يقدر عليها إلا الله ثم تصرفون العبادة لغيره؟!، لأنهم يقرّون بأن الله هو الخالق الموجد وحده، **والمعنى:** من فعل ذلك فهو المستحق للعبادة، وهذا من الاستدلال بالربوبية على الألوهية، بل هم قوم يساوون بالله غيره، ويجعلون له عديلاً ومثيلاً، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يصفون.

وقوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾، **ثم سألهم سؤال توبيخي آخر**، يقرر فيه انفراد الله بالخلق والإيجاد، فمن الذي صيّر الأرض ساكنة مستقرة غير مضطربة، وصيّرها مكانًا لسكن الخلق واستقرارهم عليها؟! وهي كوكب يدور في فلكه كل يوم، ومن يعيش على ظهرها لا يشعر بحركتها بسبب اتزانها واستقرارها، ومن الذي شقّ داخل فجاجها وسهولها الأنهار

العظيمة المشهورة، مثل نهر دجلة والفرات ونهر النيل وجيحون وسيحون، وغيرها؟! ومن الذي جعل في هذه الأرض جبالاً تُثبتها وتجعلها مستقرة؟، ومن الذي جعل بين البحر الحلو والبحر المالح حاجزاً[1]؟!، وذلك عند مصب الأنهار في البحار فلا تختلط بمياه البحار، **والبرزخ** هو الحاجز، وهو حاجز معنوي لا يُرى بالعين، وهو اختلاف كثافة الماء الحلو عن كثافة الماء المالح، فهذا ثقيل وهذا خفيف، وهذا شفاف وهذا غامق، وبقدرة الله منع اختلاط هذا بهذا، وهذا من السبق العلمي، فقد أثبت العلم الحديث ذلك[2]، فمن فعل ذلك كله هو الله الخالق المبدع، ثم سألهم سؤال تقريع وتوبيخ على ذلك: كيف تعترفون بأن هذه الأفعال لا يقدر عليها إلا الله ثم تصرفون العبادة لغيره؟!، بل أكثر هؤلاء القوم لا يعلمون عظمة الله وقدرته، فجهلهم بالله هو سبب شركهم به وصرفهم العبادة لغيره.

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ما سبق من أسئلة كانت عن أفعال الله بذوات المخلوقات، ثم انتقل إلى أفعاله وتصرفه في أحوال الناس التي لا يخلو عنها أحد، فسألهم: من الذي يستجيب دعاء المضطر، وهو الذي أصابته الضرورة وألجأته إلى الدعاء فابتهل إلى الله وترك جميع المخلوقات؟!، فإنه لا يجيبه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الذي ترجع إليه القلوب والنفوس عند الشدة؛

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 266).

(2) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للنابلسي: (2/ 101).

لأنها تعود إلى فطرتها، وتُشرك بالله عند الرخاء، **كما قال:** ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت:٦٥]، فعند الاضطرار يدعون الله وحده، ومن الذي يرفع ويزيل المصائب عنكم من مرض وفقر وابتلاء؟!، ومن الذي صيّركم خلفاء في الأرض، يخلف فيها كل قرن منكم القرن الذي قبله[1]؟! **إنّه الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، الذي يجعل لكم الذرّية التي تخلفكم بعد موتكم، ثم سألهم سؤال تقريع وتوبيخ على ذلك: كيف تعترفون بأن هذه الأفعال لا يقدر عليها إلا الله ثم تصرفون العبادة لغيره؟!، والقليل منكم من يتّعظ وتنفعه هذه الآيات والمواعظ.

وقوله: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾، من الذي يدلّكم على الطريق إذا ضللتم عنه في دروب الصحراء، أو كنتم تسيرون في لجة البحر؟!، وشبّهها بالظلمات لعدم وجود ما يهتدون به فيها[2]، إنّه الله سبحانه الذي خلق لكم النجوم، وجعلها وسيلة لهداية الضال في طريقه، **كما قال:** ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[النحل:16]، ومن الذي يُرسل الرياح التي تحرّك السحاب وتنقلها من مكان إلى مكان مبشرة بنزول المطر؟! فالمطر لا ينزل من دون سحاب، والسحاب لا تتحرك ولا تتكثف بدون رياح، فالريح وسيلة للسحاب تنقلها من الأدنى إلى الأعلى حتى تتكثف في أعلى الجو ثم ينزل منها المطر،

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 278).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 169).

وهو رحمة من الله بالخلق، إنّه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، الذي يفعل ذلك كله، ثم سألهم سؤال تقريع وتوبيخ على ذلك: كيف تعترفون بأن هذه الأفعال لا يقدر عليها إلا الله ثم تصرفون العبادة لغيره؟!، فتعالى الله وتقدس عن أفعالكم القبيحة وعما تنسبون إليه مما يليق به.

وقوله: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾، من الذي بدأ إيجاد الخلق من العدم؟! ومن الذي يقدر على بعثهم بعد الموت؟!، ومن الذي يرزقكم من السماء بنزول الأمطار، ومن الأرض بإنبات الزروع المثمرة؟ **إنّه الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، الذي يفعل ذلك كله، ثم سألهم سؤال تقريع وتوبيخ على ذلك: كيف تعترفون بأن هذه الأفعال لا يقدر عليها إلا الله ثم تصرفون العبادة لغيره؟!، قل لهم يا محمد بعد هذه الأسئلة التقريرية السابقة الدالة كلها على انفراد الله بالعبادة: هاتوا أدلتكم وحجتكم على أن غير الله فعل شيئاً من هذه الأشياء، إن كنتم صادقين في دعواكم أن غير الله يستحق العبادة.!

وقوله: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾، وأخبِر المشركين يا محمد أن الغيب كله لله ولا يعلم به أحد من سكان السماء ولا سكان الأرض، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، فضلاً عمن دونهم من الجن والشياطين والسحرة والكهان، فقد كان المشركون يعتقدون أن الجن والكهان يعلمون الغيب، **أي**: ولا يدري كل من في السموات والأرض

متى يكون البعث[1]؛ لأنه غيب لا يعلمه حتى إسرافيل المكلّف بالنفخ في الصور للبعث، **كما في الحديث: "كيف أنْعم وصاحب الصور قد التَقم الصور، وحَنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يُؤمر"**[2].

وقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾،

"**بل**" هذه للإضراب عما سبق، وهو جهلهم بوقت البعث، **ولفظ: "ادّارك" فيها معنيان للمفسرين**[3]**: الأول**: بمعنى نما علمهم بالآخرة وازداد شيئًا فشيئًا من خلال كثرة الأدلة الحسية عليه، **والمعنى الثاني**: عكسه، بمعنى ضعُف وقلّ علمهم بالآخرة بسبب تكذيبهم وعدم استماعهم للآيات البينات الدالة عليه، والثاني هو الأرجح للسياق بعده، فقد أضرب عن ذلك العلم الضعيف وجعله في مرتبة الشك، ولا يُقال لشيءٍ إنه مشكوك فيه إلا إذا نقصت فيه نسبة العلم كثيراً، ثم أضرب عن نسبة ما عندهم من شك في الآخرة، وأثبت أن بصائرهم وقلوبهم قد عَمِيت عنها فلا ترى شيئًا من دلائلها وآياتها الواضحة لكل مبصر ومتأمل فيها، **والمعنى**: بل اضطرب وضعف علمهم في الآخرة فهم في شك منها فهم منها عمون[4].

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 127).

(2) مسند أحمد: (18/ 228)، برقم: (11696)، والعظمة لأبي الشيخ الأصبهاني: (3/ 851)، برقم: (396)، وهو حديث حسن بشواهده.

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 170).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 23).

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾، ثم أخبرنا عن عقيدة المشركين من كفار قريش وغيرهم ممن وافقهم على هذا المذهب، وهو إنكار البعث والنشور، فقد كانوا يستبعدونه ويتساءلون منكرين ومستغربين وقوعه: أتُصبح أجسادُنا وأجساد آبائنا تراباً في القبور ثم نخرج نحن وهم أحياء منها بعد ذلك؟! ثم أكّدوا إنكاره بأنهم قد وُعدوا هم وآباؤهم بهذا من قبل وعد محمد لهم، وما هذا الوعد بالبعث إلا أحاديثهم وأكاذيب السابقين التي لا صحة لها، والأساطير جمع أسطورة وهي الأباطيل والأكاذيب[1]، **والمعنى:** ما هذا إلا كلام معاد قاله الأولون وسطروه وتلقفه من جاء بعدهم ولم يقع شيء منه[2]!

وقوله: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾، **قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذّبين بالآخرة:** سافروا في الأرض، وانظروا نظر تأمل وتفكر آثار وديار مَن كان قبلكم من المكذّبين المجرمين، كقوم عاد وثمود، وقوم لوط، ماذا فعل الله بهم بسبب تكذيبهم وإجرامهم، واتعظوا بحالهم حتى لا يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، ينهاه عن الحزن عليهم بسبب إعراضهم وعدم إيمانهم، وقد بذل معهم جُهداً مُضنياً بالدعوة والبلاغ والتوجيه والنُصح، والضيق هو حالة يشعر فيها

---

(1) تاج العروس: (12/ 25).

(2) التحرير والتنوير: (20/ 26).

الإنسان بضيق النفس وعدم انشراح الصدر، وهو أثر من آثار الخوف من شر ومكر متوقع على النفس من عدوها، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ مما كان يجده من حزن وشفقة على قومه بسبب تكذيبهم، وضيق وحرج في نفسه بسبب أذيتهم له، وما يدبرون له من كيد ومكر، **والمعنى**: لا تلتفت إلى هذا المكر فإن الله سيعصمك منهم وينصرك عليهم.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾، كان المشركون كثيراً ما يسألون رسول الله ﷺ والمؤمنين معه متى يوم البعث الذي تعدوننا به، وتهددوننا بما نلقى فيه من العذاب، وكانوا يقولون ذلك على سبيل الاستعجال والاستهزاء والتحدي، ولذلك ربطوا بين صدق من أخبرهم به بذكر موعد وقوعه، وهذا جهل وتحكم في الحوار، فالإخبار عن وقوعه قضية مستقلة عن ذكر موعده، فلا يربط صدق القضية الأولى بحصول الثانية، ويدل على قلة العقل، فالبعث حق، وموعده غيب لا يعلمه إلا الله.

وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾، **قل لهم يا محمد**: إن البعث كائن لا محالة، وعسى أن يكون قد قرب ودنا منكم الذي تستعجلونه من العذاب، وهو إشارة إلى ما أصابهم يوم بدر من قتل وسبي[1]، **وأصل الرّدف**: ما جاء في عقب غيره، ومنه الرديف وهو الذي يركب

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1340).

خلف الراكب[1]، ولكن الله يتفضل على الناس بالإمهال وتأخير العقوبة عليهم مع كفرهم، **والسياق هنا يشير إلى أن المقصود بهم** الكفار من أهل مكة[2]، لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا عن غيّهم، وقد انتفع بهذا التأخير والإمهال عدد كبير منهم فأسلموا في فتح مكة بعد أن نجوا من القتل في بدر وما بعدها من الغزوات، وهي نعمة يلزمهم شكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها، ولكن أكثر الكفار لا يشكرون الله عليها لغفلتهم عنها، ولا مانع أن تكون الآية عامة في كل الناس، مؤمنهم وكافرهم، فمن فضله عليهم إسباغه نعمَه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم[3]، وترك معاجلتهم بالعقوبة على كفرهم بالله أو معصيتهم له، وقلّ من يشكر الله منهم على هذه النعمة، **فعلى تفسير أن المقصود بلفظ الناس:** كفار مكة؛ **فيكون المعنى:** وإن ربك يا محمد ليعلم ما تسر وتخفي صدور المكذبين لك من قومك من العداوة والمكر بك[4]، وفي هذا تطمين له من مكرهم، فالله يرقبهم ويرصد مكرهم، وسيحميك من شرهم، ويجازيهم على ذلك يوم القيامة، وعلى تفسير الناس: على العموم؛ فالمعنى: وإن ربك يا محمد ليعلم ما تخفيه صدور الخلق من خير أو شر، وما يظهرونه من قول أو فعل حسن أو سيّء، وسيجازيهم على ذلك يوم القيامة.

---

(1) ينظر: تهذيب اللغة: (14/ 68).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 294).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 209).

(4) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 382).

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾، بعد أن أخبر عن علمه بما تخفي صدور الناس وما يظهرونه؛ أخبر عن علمه المطلق بما في السموات والأرض مما يغيب عن الخلق ولا يعلمون به، والغائبة: اسم للشيء الغائب، والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالتاء في الفاتحة[1]، وأنه قد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، فكل شيء فيه واضح مفصل.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – بناء العقيدة الصحيحة في نفوس الناس من خلال آيات الله في الكون أسلوب قرآني.

2 – من رحمة الله بالخلق أنه يستجيب دعوة المضطر منهم، مسلماً كان أو كافراً.

3 – أن علم الغيب خاص بالله تعالى، لم يُعطِه نبياً مُرسلاً ولا ملَكاً مُقرباً.

4 – الاعتبار بقصص هلاك الأمم السابقة والاتعاظ بها.

5 – إحاطة علم الله جل وعلا بالكون كله، وأن ذلك كله مدوّن في اللوح المحفوظ.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 29).

تفسير المقطع السادس من سورة النمل

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى
وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ
إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ
بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٨١ ۞ وَإِذَا وَقَعَ
ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢ وَيَوۡمَ
نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم
بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨٤ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥
أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٨٦
وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ
٨٧ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا
تَفۡعَلُونَ ٨٨ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ
هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ
فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ
ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾.

قـــول الله تعـــالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾، **يُبيّن** الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات أن القرآن الكريم جاء مهيمنًا على الكتب السابقة السماوية كلها، وأن بني إسرائيل كانوا قد اختلفوا في تفسير ما في كتبهم بعد دخول التحريف عليها، وانقسموا إلى فرق متعددة، فجاء القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، فيُقر الحق منها ويُبطل الباطل، والقص تتبع الأثر[1]، وقد يكون حسيًا، وقد يكون معنويًا، **والمقصود به هنا** الأثر المعنوي وهو تتبع أماكن الخلل في عقائدهم وتحريفهم لكتبهم، ويُبيّن لهم الصواب من الباطل، ويكشف انحرافاتهم فيها، فلو اتبعوه وآمنوا به لانتهى الخلاف بينهم.

وعبّر بلفظ: "**أكثر**" إشارة أنه لم يستقص كل اختلافاتهم، وإنما اهتم بأبرز القضايا وأهمها، وهي قضايا العقائد والأحكام الشرعية وغيرها الرئيسية، أما بعض الأشياء الفرعية التي اختلفوا فيها فتركها لكثرتها، ووصف القرآن بأنه هدى ورحمة لمن آمن بالله، واتبع رسوله محمداً ﷺ، وخص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون به، ويدخل فيهم من آمن به من بني إسرائيل، فالقرآن طريق للهداية إلى الحق، وسبب للدخول في رحمة الله، وفي هذا إشارة إلى أهمية الإيمان الصادق بآيات القرآن والعمل بها للحصول على ثمارها الطيبة في الدنيا والآخرة، أما الذين لم يؤمنوا بالقرآن من بني إسرائيل ولم يتبعوا ما جاء به؛ فسيبقون مختلفين متناحرين فيما بينهم إلى أن يموتوا، وسيفصل الله

(1) ينظر: تاج العروس: (18/ 98).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بينهم يوم القيامة بحكمه العدل، ويجازي كل فريق بما يستحق، فأهل الحق إلى الجنة وأهل الباطل إلى النار، **وذيّل الآية** باسمي العزيز العليم، لمناسبتهما للقضاء والحكم بين الخلق، **فالعزيز** الذي لا يغلبه شيء، **والعليم** الذي أحاط بأحوالهم علمـاً، **وفيه إشارة** إلى اشتراط العلم والقوة في القضاة الذين يقومون بالحكم والفصل في اختلافات الناس، فيكون قوي الشخصية لا يخاف في الله لومة لائم، وقوي في الحجة والفهم لمعرفة الحق من الباطل، وما نشاهده اليوم من فساد في القضاء وتأخر الفصل في القضايا، يرجع إلى غياب إحدى هاتين الصفتين لدى القاضي أو كلتاهما.!

وقولـه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾، أمر الله رسوله ﷺ بالتوكل عليه وتفويض أمره إليه سبحانه، فهو كافيه وحافظ له من هؤلاء المكذبين الذين يكيدون له ويمكرون به، **وعلّل أمره** له بالتوكل بأنه على الحق، وأن ما جاء به هو الدين الصحيح والحق الواضح البيّن، وفي ذلك شهادة لرسوله ﷺ بالعظمة الكاملة المنزهة عن كل نقص[1].

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾، **هـذا مثـالٌ ضربه الله** لحال الكفار وموقفهم من دعوة رسوله ﷺ لهم إلى الإيمان بالله، **فشبّههم** بحال الموتى الذين لا ينتفعون بما يسمعون، **ثم شبّههم** بالصُم، وهو جمع أصمّ، وهو الذي ذهبت حاسة السمع لديه، فمهما صحتَ في أذنه فلن

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 33).

يسمعك، **ووصفهم** أثناء النداء لهم وهم في حالة الإدبار، وهو الإعراض والهروب عن سماع الصوت، باتجاه معاكس له، **وفي هذا إشارة** إلى أن الأصم الذي يراك وأنت تخاطبه قد يفهم منك بعض ما تقول بلغة الإشارة، فأما إذا ولى مدبراً فقد ابتعد عن الصوت ولم يلاحظ حركة الشفتين(1)، فأنّى له أن يسمع أو يفهم؟!، وهو وصف مطابق لحال الكفار مع دعوة رسول الله ﷺ لهم، فلم يسمعوا ولم يعقلوا شيئًا مما يخاطبهم به، بل نفروا عنه وابتعدوا عنه، **ثم شبّههم** بالعُمي، وهو جمع أعمى، وهو من ذهبت حاسة البصر لديه، فلا يعرف كيف يسير على الطريق ولا يهتدي إلى غايته، فكما لا تستطيع أن تجعل الأعمى يبصر الطريق؛ فإنك لا تستطيع إدخال الإيمان إلى قلوب هؤلاء الكفار، ولن يسمع الدعوة ويستجيب لها وينتفع بها إلا من وفقه الله للتصديق بما جئت به، والخضوع والاستسلام لأمر الله والانقياد لشرعه.! **فصار الناس مع دعوة الرسول ﷺ فريقين: فريقًا** أعرض عنها وكفر بها، **وفريقًا** آمن بها واستفاد منها.

وقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾، **ثم انتقل الحديث إلى تذكيرهم بيوم القيامة** بذكر بعض علاماته الكبرى، **والمعنى:** إذا حان وقت عذابهم الموعودون به في قول الله الأزلي المكتوب في اللوح المحفوظ، أذن الله بخروج الدابة، وهي إحدى علامات الساعة الكبرى، **كما في الحديث:** **"ثلاثٌ إذا خرجن، لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من**

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 35).

مغربها، والدجال، ودابة الأرض"[1]، **والدابة** هذه حيوان من غير الإنسان، ثم اختلفوا في نوعها، ومن أين تخرج، على أقوال كثيرة لا يصح فيها قول مرفوع، ويكفي أن نعرف أنها من علامات الساعة الكبرى، وأنها دابة تخرج من الأرض وليست من السماء، **وأكثر المفسرين** أنها تخرج من مكة من الصفاء[2].

وفي لفظ: "تكلمهم" قراءتان[3]، **قرأ الجمهور:** ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بضم التاء وتشديد اللام، **وقرأ غيرهم:** ﴿تَكْلِمُهُمْ﴾، بفتح التاء وتخفيف اللام.

فعلى قراءة الجمهور فمعناها: تخبرهم وتحدثهم بكل اللغات التي يفهمونها، بأن الناس الكفار لا يؤمنون بآيات القرآن، وهو تعليل لإظهار الأمر الخارق للعادة حيث لم يوقن المشركون بآيات القرآن، فجعل ذلك إلجاء لهم حين لا ينفعهم ذلك[4].

وعلى القراءة الأخرى فمعناها: تسمهم وتجرحهم في أنوفهم، من الكْلم -بسكون الكاف- وهو الجرح، ولا مانع من أن تفعل بالناس هذا وهذا، لعدم التعارض.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ

---

(1) صحيح مسلم: (1/ 137)، برقم: (158).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 303).

(3) ينظر: تفسير الطبري :(19/ 499).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 39).

إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾، واذكر لهم يا محمد ما يجري للخلق يوم القيامة، فإن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يحشر من كل أمةٍ من الأمم فوجًا، **والفوج** هم الجماعة من الناس، وهم زعماء المكذبين وأئمتهم فيكونون أول من يحاسب ويعذب[1]، حيث يبدأ بمحاسبة أشد الناس تكذيبًا وكفراً وإجرامًا، فيحبس أولهم في آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون إلى موضع الحساب[2]، فإذا حضروا موقف الحساب والسؤال، سألهم الله سؤال توبيخ على تكذيبهم بالآيات التي أنزلها على رسله بدون حجة، بل بجهل منهم وإعراض عن التفكر والتأمل في صحتها، فما الذي كان يشغلكم من عمل فلم تبحثوا عنها ولم تتفكروا فيها؟! وهو سؤال توبيخ وتقريع لهم لعدم اهتمامهم بما ينفعهم في آخرتهم، وفي الآية إشارة إلى خطورة الجهل على الإنسان، فإنه يدفعه إلى تكذيب الشيء قبل أن يتبين حاله، **كما قال:** ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾[يونس:39]، فانتهت حجتهم ووجب عليهم العذاب بسبب ظلمهم، والمقصود بالظلم هنا الكفر وسائر أنواع الكبائر الأخرى، فهم لا يتكلمون بعد ذلك، ولا يدافعون عن أنفسهم لسقوط حجتهم.

وقوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾، **هذا الآية جملة معترضة بين ما سبق وبين ما سيأتي**، لأن السياق يتحدث عن الدار الآخرة، ليتخلل الوعيد الاستدلال ببعض الآيات التي تحتاج تأمل ونظر، **والاستفهام** للتعجيب من حالهم، **والرؤية يجوز أن تكون**

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 40).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 622).

قلبية، **ويجوز أن تكون** الرؤية بصرية(1)، فلو نظروا في آية الليل والنهار وتأملوا فيها لدفعهم ذلك إلى الإيمان بالله، فقد منح الله الخلق هذه النعم، حيث صيّر لهم الليل مظلماً لكي يسكنوا فيه، فالظلام وسيلة من وسائل السكن والهدوء والراحة، وصيّر لهم النهار مضيئاً من أجل أن يعملوا وينتشروا في الأرض، وفي ذلك حجج وبراهين كافية لمن تدبرها، ولكن لا ينتفع بها إلا المؤمنون ومن يرجى منهم الإيمان عند النظر والتأمل في الأدلة، أما الكافرون فهم معرضون عنها، وجاحدون لها.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾، واذكر يوم ينفخ في الصور، **وقد اختلف العلماء في عدد النفخات على قولين**(2): **الأول**: **أنها ثلاث نفخات**، **النفخة الأولى**: نفخة الفزع، **والثانية**: نفخة الصعق، **والثالثة**: نفخة البعث والقيام لرب العالمين، ويستثنى من الفزع من أكرمه وحفظه من ذلك، **والثاني**: أنهما نفختان لا ثلاث، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق، لأن الأمرين لازمان لهما، أي فزعوا فزعاً ماتوا منه، أو إلى نفخة البعث فيبعثون فزعين خائفين، وهذا الفزع هو ما لا يخلو عنه أحد عند الإحساس بشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة(3)، فإذا رجحنا أنها النفخة الثانية، وهي نفخة البعث؛ فالمستثنون من الفزع هم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 43).
(2) ينظر: تفسير القرطبي: (13/ 240).
(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 355).

المؤمنون الصالحون، كما سيأتي ذكرهم، ويبقى الكافرون من جن وإنس في فزعٍ شديد، تبلغ قلوبهم الحناجر من شدة الفزع والخوف، وكل من في السموات ومن في الأرض من الخلق يحشرون بين يدي الله سبحانه صاغرين ذليلين خاضعين.

قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾، **في معناها قولان: الأول**[1]: أن هذا وصف لحال الجبال يوم القيامة؛ لأن السياق يتحدث عن يوم القيامة، **والمعنى**: أنك أيها الرائي إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة في مكان واحد لعظمها، وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب إذا ضربته الرياح، **والمقصد من هذا** تذكير الناس بقدرة الله تعالى، وما يجري في ذلك اليوم من تغيير في الكون، **والثاني**: أن هذا وصف لحال الجبال في الدنيا، أن الرائي يظن الجبال جامدة وثابتة لا تتحرك، والواقع أنها تتحرك بحركة الأرض، وحركتها سريعة لا تكاد تراها من شدة سرعتها لأنك تعيش عليها، والتعقيب بالصنع الدقيق المتقن للخلق يقتضي أن الجبال تتحرك بحركة الأرض في الدنيا ولا يشعر بها الخلق، وتكون هذه الآية جملة اعتراضية داخل سياق الحديث عن الآخرة، ورجّح هذا القول ابن عاشور[2]، والقول الأول هو قول جمهور المفسرين، **ورجّحه** الشنقيطي[3]، وضعّف غيره، والظاهر لي أنه إذا ثبت بالحقيقة العلمية دوران الأرض حول

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 623)، وتفسير ابن كثير: (6/ 217).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 50).
(3) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (6/ 144).

نفسها، كما يقول العلم الحديث؛ فإن هذا الوصف يصلح أن ينطبق على حال الجبال في الدنيا وفي الآخرة، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال الخلق، وهذا التذييل غالبًا يأتي بأسلوب الخبر لكنه يُفيد التهديد والوعيد.

وقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾، **والمقصود بالحسنة قولان**[1]: **الأول**: أنها كلمة الإخلاص؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وله من تلك الحسنة خيرٌ يوم القيامة، **وهو**: الثواب والأمن من العذاب والجنة.

والثاني: أنها الفِعَلة الحسنة من صلاة وصدقة وتسبيحة، فيضعفها الله تعالى حتى تكتب أضعاف ما عمل، فيكون الإضعاف خيراً مما عمل، ولا تعارض بين المعنين، ويمنح الله المؤمنين الصالحين يوم الحشر والنشر الأمن من خوف العذاب، فهم آمنون منه، وبعيدون عنه.

وقولـــــه: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾، **والمقصود بالسيّئة هنا** الكفر وما يلحق به، وهي التي يستحق بها أصاحبها أن يُلقوا على وجوههم في نار جهنم، وخص الوجوه بالكبّ مع أن المقصود به جميع الجسم؛ لأن الوجوه هي أول ما يقلب إلى الأرض عند الكبّ، **والاستفهام** في معنى النفي بقرينة الاستثناء[2]، ويُسألون سؤال تبكيت وتوبيخ أثناء دفعهم إلى جهنم، فتقول لهم خزنة جهنم: ما يحل بكم من جزاء وعذاب هو بسبب أعمالكم السيّئة في الدنيا من الشرك والمعاصي.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 317).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 54).

وقولـــــه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾، **أخبر قومك يا محمد**، أن الله أمرك بأن تعبد الله وحده لا شريك له، وأضاف لفظ اسم مكة إلى الرب تشريفاً لها، وقد حرّمها الله يوم خلق السموات والأرض[1]، وأكّد ذلك التحريم على لسان إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[2]، وجاء محمد ﷺ وأكّد على تحريمها[3]، وجدّد حدود الحرم الجغرافية من جميع الجهات، فلا يحلّ فيها القتال، ولا سفك الدماء، ولا الصيد، ولا اللقطة لغير معرّف، ولا يُقطع شجرها، ونحو ذلك من الأحكام الخاصّة بالحرم، ولله كل شيء في هذا الكون خلقاً وملكاً، فهو خالق كل المخلوقات في هذا الكون ومالكها، وأمرني الله أن أكون من الخاضعين لأمره والمُنقادين له بالطاعة والعبادة، والأمر له هنا أمر لسائر أمته، وأمرني الله أن استمر في تلاوة القرآن، **وللتلاوة معنيان**[4]: **القراءة، والاتباع**، وكلاهما مُراد منه، فالمطلوب من رسول الله ﷺ أن يقرأ القرآن تعبداً ورغبة في أجر القراءة، وأن يعمل بما فيه، ويدعو الناس لاتباع ما فيه من أحكام والعمل بها، فمن اهتدى بالاقتداء به وعمل بما دعاه إليه من الهدى؛ فمنفعة هدايته وثوابها راجعاً

---

(1) ينظر الحديث في: صحيح البخاري: (5/ 153)، برقم: (4313).

(2) ينظر الحديث في: مسند أحمد: (37/ 312)، برقم: (22630)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر الحديث في: صحيح البخاري: (1/ 32)، برقم: (104).

(4) ينظر: تاج العروس: (37/ 249).

إليه، ومن أعرض وابتعد عن أسباب الهداية؛ فضرر ذلك وعقوبته راجعًا عليه، ومهمته ﷺ هي الإنذار للناس من مغبة الإعراض والكفر، ودلّ الناس على الخير، وليس بيده إدخال الهداية إلى قلوبهم، فهذا الأمر بيد الله وحده.

وختَم الله السورة بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾، **أمر الله رسوله محمداً** ﷺ بأن يحمد الله على ما منّ بها عليه من نعمة النبوة والعلم ونحوها، من نعمه التي لا تحصى، ويحمده على ظهور الحجة على صدق ما جاء به من عند الله سبحانه، وسيطلعكم قريبًا على مجموعة من الحجج والبراهين والآيات الحسية في أنفسكم وفي الواقع؛ فتنظرون إليها وتعرفونها معرفة تُرشدكم إلى الإذعان للحق والإيمان به، فإن آمنتم بالله جازاكم بالأجر والثواب، وإن أعرضتم عنه عاقبكم بالعذاب الذي تستحقونه، فلا تظنوا أن الله غافل عنكم، بل يرصُد ويرقُب أعمال الخلق، فيُجازي المُحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ، فلا ييأس من نصر الله له عليهم(1).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- مكانة القرآن الكريم بين الكتب السماوية، وأنه جاء مُهيمنًا عليها، وناسخًا لها.

2- بيان كشف خلافات بني إسرائيل وتحريفاتهم لكتبهم.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 59).

3 – أهمية التوكل على الله للداعية إلى الله، فهو الذي ينصره ويُؤيده على من يمكر.

4 – بيان أن هداية التوفيق بيد الله وحده، وأن هداية الدلالة والإرشاد بيد الرسل والدعاة إلى الله، فمن لم يمنحه الله هداية التوفيق لم ينتفع بهداية الدلالة ولا الإرشاد.

5 – بيان أن الإيمان والعمل الصالح سببٌ للأمن من الفزع يوم القيامة.

6 – بيان مشروعية قراءة القرآن، ودعوة الناس إلى سماعه، والعمل به، في كل أوقاتهم.

تفسير سورة القصص

تفسير المقطع الأول من سورة القصص

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ
لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ
يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ
فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ (٦) وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ
أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٧) فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٩) وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ
لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠) وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ
فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١١) ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ
عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا
تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (١٣)﴾.

شخصية السورة:

سورة القصص؛ سورة مكية[1]، **ومن مقاصدها** بيان عاقبة المتقين، والتمكين لعباد الله الصالحين وإن حصل لهم الابتلاء والاستضعاف، وإهلاك الطغاة والمتكبرين وإن حصل لهم الظهور والتمكين.

ابتدأت السورة بالحروف المقطعة: ﴿طسٓمٓ ١﴾، **وقد بيّنّا أنها من حروف الهجاء**، وأنه لا معنى لها، **وأن الغرض من ذكرها في بداية بعض السور؛ هو** الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم الذي يتكوّن من هذه الحروف.

وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾، هذه آيات من آيات الكتاب، وهو القرآن الواضح البيِّن في أحكامه وفصاحته وبلاغته.

وقوله: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، **والتلاوة هي** القراءة، **والأصل في التلاوة** أن تقرأ شيئًا من شيءٍ مكتوب، والتالي للقرآن على محمد ﷺ هو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بأمر الله، و"مِن" هنا تبعيضية، **أي:** نقرأ عليك بعضًا من خبر موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون، وما جرى بينهما من المحاورات والأحداث، والباء للمُلابَسة[2]، **أي:** كل ما نخبرك به فهو حق وصدق ليس فيه خيال ولا كذب، والسبب في ذلك أن كثيراً من القصص المعهودة عند الناس أغلبها يختلط فيها الخيال بالحقائق، أما

(1) تفسير ابن كثير: (6/ 220).

(2) ينظر: البحر المحيط في التفسير: (8/ 285).

قصص القرآن الكريم فكلها حقائق، واللام للتعليل، **أي**: لأجل أن يستفيد منها من كان مُصدّقًا بالقرآن والرسالة، وفيه إشارة إلى أن كفار قريش لن يستفيدوا منها لعدم إيمانهم، ولذلك أكثر القرآن من القصص في السور المكية لعل كفار مكة أن يتّعظوا بها.

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾، ثم بدأ بذكر بعض تفاصيل الخبر، **وفرعون** اسمٌ لكل من ملك مصراً، **والمقصود به** الذي كان يملك مصر في عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قد طغى وتكبّر على الناس وتسلّط عليهم في أرض مصر التي كان يحكمها، وصيّر أهلها إلى فرق مختلفة، ليشتغل بعضُهم ببعض، وهذه طريقة الظلمة والمجرمين من الحكام في التسلط على الشعوب؛ لأن الشعب لو كان على كلمة واحدة، لطالبوا الحاكم بحقوقهم، ولكنه يضرب بعضهم ببعض بأساليبه الخفية، ثم في الظاهر يسعى للصلح بينهم فيشكرونه على ذلك وينسون مطالبته بحقوقهم، **وقد استخدمت قاعدة**: **"فرِّق تسُد"** بريطانيا في البلدان التي احتلتها، **ومعناه**: فرَّق الشعب واجعلهم متناحرين لتكون سيداً عليهم، ومن فساد فرعون وعلوه في الأرض أنه استضعف طائفة من أهل مملكته فجعلها محتقرة مهضومة الجانب، وهذه الطائفة هم بنو إسرائيل، فقد سكنوا مصرَ حين جاء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأولاده إليها في عهد تولي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الوزارة في مصر، **كما في قوله**: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:93]، وتناسلوا فيها وزاد عددهم، فكان فرعون يقتل الذكور من بني إسرائيل ويستبقي

الإناث، وذلك لسبب استقر في ذهنه، وهو أن مُلكه سيزول على يد واحد من بني إسرائيل، **قيل:** بسبب أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشّر زوجته سارة بعد أن نجت من فرعون مصر الذي حاول أن يؤذيها، أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكان بنو إسرائيل يتحدثون بهذا عند الفراعنة[1]، **وقيل:** بسبب رؤيا رآها وفزع منها، واستشار من حوله في تعبيرها، فكان الرأي أن يقتل الذكور ويترك الإناث[2]، ولا تعارض بين القولين، فقد يكون سمع الخبر من بني إسرائيل وحصلت له رؤيا أكدت له ذلك الخبر، فعمل بهذا القرار زمناً حتى جاءه العُقلاء من قومه، **فقالوا له:** لو استمر هذا الأمر لفني من يخدمنا من القوم، فاتفقوا على أن يقتل الذكور سنة ويتركهم سنة، فكان ميلاد هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السنة التي ليس فيها قتل فسلم، وموسى وُلد في السنة التي فيها قتل فحصل له ولأمه ذلك الابتلاء[3]، **وعبَّر بالنساء** بناءً على ما ستصير إليه، لما يترك البنت الصغيرة المولودة الأنثى حية ستكبُر وتكون امرأة وتصبح من البغايا إذ ليس لهن أزواج من قومهن، وكان الفراعنة يحتقرون بني إسرائيل فلا يتزوجون منهم، **وعلّل هذا الفعل القبيح** من فرعون وقومه بسبب فسادهم المتجذر في نفوسهم، فقد جمعوا بين الفساد العقدي المتمثل في عبادتهم لغير الله والفساد الأخلاقي والسلوكي المتمثل في قهرهم الناس والاعتداء على أعراضهم وأموالهم.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 221).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 516).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 221).

وقولــــه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦ ﴾، ونريد أن نتفضل وننعم على بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون في أرض مصر سنوات كثيرة، فنزيل عنهم ذلك الاستضعاف بإرسال موسى إليهم وإخراجهم من ذلك الابتلاء، ونصيّرهم أئمة يقتدي بهم الناس في الخير، فقد كان بنو إسرائيل بعد أن أُرسل إليهم موسى وآمنوا به؛ هم أفضل عالَم زمانهم لأنهم يعبدون الله، وباقي أهل الأرض كفار ووثنيون، ونصيّرهم وارثين للأرض المقدسة بعد الكنعانيين والقوم الجبارين الذين كانوا يحكمونها[1]، ونريد أن نُمكن لهم في الأرض المعهودة وهي الشام، أما مصر فقد خرجوا منها ولم يعودوا إليها، ونجعل فرعون ووزيره هامان وجنودهما الذين كانوا يتقوون بهم على ظلم الناس يرون من طائفة بني إسرائيل المستضعفة ما كانوا يخافونه مِن هلاكهم وذهاب ملكهم وإخراجهم من ديارهم على يد مولود من بني إسرائيل، رغم حذرهم من ذلك، وقتلهم لذكور بني إسرائيل، فإن الله إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه.

وقولـه: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ ﴾، **الـوحي هنـا** بمعنـى الإلهام الصادق، وهو يحصل للصالحين فيوقع في نفوسهم يقينًا يدفعهم إلى عمل ما ألهموا به، وقد حمى الله هذا الجنين في بطن أمه أثناء الحمل فلم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 71).

يكتشفها الجواسيس من آل فرعون اللاتي كن يدخلن إلى البيوت لرصد كل حامل، فلما ولدت كانت تتمنى من كل قلبها أن يكون المولود بنتًا، فلما رأته ذكراً تألمت ألمًا شديداً وخشيت أن يُذبح، فألهما الله في قرارة نفسها أن ترضعه، ولا تنشغل بالتفكير بمصيره قبل أن تقوم بواجب الإرضاع لفائدة أول دفعة من الحليب بعد الولادة للطفل، ففيه الجرعة الكاملة من الفيتامينات والحديد وسائر ما يحتاج له الجسم الصغير، فإذا استمر خوفك عليه من آل فرعون فاصنعي له تابوتًا وضعي الغلام فيه وألقي التابوت في ماء النيل، فإن منزل آل موسى كان على نهر النيل، حيث كانت منازل بني إسرائيل على إحدى ضفاف نهر النيل، وكانت قصور فرعون على الضفة الأخرى منه، ونهاها الله عن الخوف والحزن عليه، ووعدها بإرجاعه إليها سليمًا معافى، وبشرها بأنه سيكون رسولاً يوحي إليه بعد ذلك.

وقد جمعت هذه الآية بين خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين، فالخبران: وأوحينا إلى أم موسى، وخفت عليه، **والأمران:** أرضعيه، وألقيه، **والنهيان:** لا تخافي، ولا تحزني، **والبشارتان:** رادّوه إليك، وجاعلوه من المرسلين.

وقوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾، فنفّذت أم موسى ما أمرها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به، فأرضعته، ولما خافت أن يكتشف أمرها عند آل فرعون فيأخذه منها؛ وضعته في تابوت وألقته في النهر، ولما تحرك التابوت على النهر مشى باتجاه الضفة الأخرى، فرأت التابوت آسية زوجة فرعون، فأمرت إحدى النساء أن

تأتي به إليها، وأسند الالتقاط إلى آل فرعون؛ لأن استخراج التابوت من النهر كان من إحدى النساء العاملات لديهم[1]، **واللام** لام التعليل التي تكون نتيجتها العاقبة، **أي**: أراد آل فرعون أن يفرحوا به ويستفيدوا منه، ولكنه صار عدواً لهم وسبباً لحزنهم، وقد كان فرعون ووزيره هامان وجنودهما على خطيئة كبيرة وإجرام عظيم في كفرهم وظلمهم للناس[2].

وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾، لما وصل التابوت إلى آسيا بنت مزاحم، زوجة فرعون، فتحت التابوت ورأت فيه طفلاً صغيراً، فأعجبها وفرحت به، وأحبته حبًا شديداً، فقد وضع الله له المحبة في قلوب الخلق، فكل من رآه أحبه، **كما قال الله عنه**: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾[طه:39]، فطلبت من فرعون عدم قتله، لأنه همّ بقتله باعتبار أنه من بني إسرائيل، وكانت تلك السنة هي سنة القتل للذرية، فألحّت عليه بتركه لها لعله أن ينفعها فتصيب منه خيراً، أو تتخذه ولداً لها؛ لأنها كانت عقيماً لا تلد، فاستوهبت الغلام من فرعون فوهبه لها[3]، وحفظ الله موسى من الهلاك بهذه التدابير، وآل فرعون لا يشعرون بنتائجها عليهم، وأن هلاكهم سيكون على يديه.!

وقوله: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 75).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 76).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 338).

عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾، وأصبح قلب أم موسى فارغـًا مـن كـل شيء إلا من التفكير بموسى، لمعرفة خبره ومصيره بعد ذهابه من حضنها، ومـن شدة ولهها به وتذكّرها له؛ كادت أن تُظهر ما حصل لها لمن لا يعرف خبرها من غير أهلها، وتخرج تصيح يا ابناه![1]، لولا أن الله ربط على قلبها بالصبر وثبتها على كتمان السر، لتكون من المصدقين بما وعدها الله من نجاته وعودته إليها.

وقولـه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾، فـأمرت بنتهـا الكُـبرى، وهــي أخـت شقيقة لموسى، أن تتبع أثره في خفية وحذر، لتعرف من أخذه من النهر، وايـن استقر به المقام، فذهبت فرأته من بعيد ولم تقرب منه لئلا يعلموا أنها أخته، أو أنها كانت ترقبه[2]، فرأته عند قوم من حاشية امرأة فرعون يطلبون له امرأة ترضعه، فكان كلما أتوا له بامرأة ترضعه لا يقبل ثديها ولا يرضع منها، فقد منع الله الغلام من الرضاعة من غير أمه، **والتحريم هنا** كوني قدري لا شرعي، فليس محرّم عليه شرعـًا أن يرضع من أي امرأة، بل منعه من الرضاع بالتبغيض له من غير أمه منذ تركته أمه ومن قبل أن تراه أخته؛ من أجل أن يكون ذلك سببـًا لرجوعه إلى أمه، فعرضت عليهم أخته وجود امرأة مرضعة صالحة وأمينة على التربية وناصحة لمن

---

(1) ينظر: تفسير ابن جزي: (2/ 110).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 346).

تُربيه، فقبلوا بعرضها، فذهبت وأتت بأمها إلى القصر فأرضعته فرضع الغلام منها، فدفعوه إليها، وأتمّ الله لها ما وعدها، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، وأقرّ عينها بولدها، وأبدلها الله من بعد خوفها أمنًا[1].

واللام في "ولتعلم" لتعليل أن وعد الله في إرجاعه إليها حق لا خلف فيه، وواقع لا محالة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله وعدها بذلك[2]، أو أنهم لا يعلمون بتدابير الله العظيمة التي يُجريها في أفعاله في هذا الكون، فتحقق وعد الله لأم موسى وجمع لها بين عودة ولدها إلى حضنها، وجريان رزق فرعون عليها بسبب إرضاعها له، **وفي الحديث المرسل: "مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل، مثل أم موسى ترضع ولدها، وتأخذ أجرها"**[3]، فمن عمل علمًا دنيويًا متقنًا وأراد به الخير للناس؛ أعطاه الله الأجر في الآخرة ولم يحرمه الأجر المادي في الدنيا، فلينتبه لذلك المسلم الذي يعمل في الأعمال الدنيوية من تجارة وصناعة وزراعة، ونحوها.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن سورة القصص انفردت بتفاصيل قصة موسى أكثر من غيرها، من يوم كان حِملاً إلى أن أهلك الله فرعون ونجى موسى وقومه.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 224).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 187).

(3) المراسيل لأبي داود: (ص:247)، برقم: (332).

2 – من فضل الله سبحانه على عباده الصالحين أن يدبّر لهم وسائل النجاة بما لا يتخيّله عقل.

3 – أن تدبير الظالمين قد يعود عليهم بالدمار والهلاك.

4 – بيان قوة عاطفة الأم تجاه الأولاد، وأنها أكثر من عاطفة الأب، لكي تقوم بالتربية والإرضاع والصبر والسهر عليهم.

5 – بيان جواز استخدام الحيلة لإنقاذ المظلوم، وعدم استخدمها في ظلم الأبرياء.

6 – بيان أن وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حق لا يتخلف.

تفسير المقطع الثاني من سورة القصص

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ
ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ
إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ
فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ
بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ
جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ
رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ
ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾
فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ
عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قــــول الله تعـــــالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾، سبق معنا في تفسير الآية السابقة؛ أن الله حقّق لأم موسى أحد الوعود، وهو أن يرد وليدها إليها سالمًا، فردّه إليها بوسيلة الإرضاع، وبقي الوعد الثاني؛ وهو أن يجعله من المرسلين، فذكره في هذه الآية، والحكم هو النبوة والرسالة، والعلم هو الفهم لما جاء به الوحي، وتكون هذه الآية اعتراضية، لأن النبوة ما تمّت لموسى إلا بعد عودته من مدين[1]، أو أن يكون معنى الحكم والعلم هو الفقه والعقل والعمل قبل النبوة[2]، وبلوغ الشدة: هي حالة اكتمال عقل الإنسان، والاستواء: هو اكتمال بنية الإنسان الجسدية[3]، ومنهم من حدّدها بسن الأربعين من العمر، ومنهم من قال دون ذلك[4]، وما فعله الله بموسى وأمه من نجاة موسى وعودته إلى أمه، وما أعطاه الله من العلم والحكمة إنما هو ثمرة لإحسانهما في عبادة الله، وإحسانهما لخلق الله، فمن أراد خير الجزاء من الله؛ فليكن متقنًا في عمله، مخلصًا في عبادته، موصلاً الخير إلى خلق الله.

وقولــه: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، فلما بلغ أشده ومنحه الله العلم والفقه في دين الله، ظهر منه الخلاف لفرعون وقومه، وعاب عليهم عبادة

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 87).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 526).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 87).

(4) ينظر: تفسير الماوردي: (4/ 240).

غير الله، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفـاً مستخفياً[1]، فدخلها في وقت استراحة الناس وعدم انتشارهم في أسـواقها وشـوارعها، فوجد في أحد شوارعها رجلاً من بني إسرائيل من طائفة موسى، فشيعة الرجـل أتباعـه وأنـصاره[2]، ورجـلاً مـن طائفـة عـدوه، وهـم آل فرعـون، فـإن العـداوة بـين آل فرعـون وبنـي إسـرائيل قديمـة ومتجـذرة في نفوسـهم، يتخاصـمان ويتـضاربان، ويظهر أن القبطي كان قوياً وشديداً، وكان الإسرائيلي مهزومـاً ضـعيفاً، فـصاح الإسرائيلي بأعلى صوته طالباً الغوث والنجدة من موسى لحاجته إلـى النـصرة على القبطي، فاستجاب له موسى وأسرع إليـه، فـإنّ نجـدة المظلـوم مـن صـفات الصالحين، فجاء موسى إليه ونـصحه بالابتعـاد عـن أذيـة الإسـرائيلي فلـم يقبـل، فجمع موسى كفه وضربه به، **فالوكز هو** الضرب بجمع الكفّ[3]، فمات القبطي بسبب ذلك، ولم يكن موسى يقصد قتله، وهذا يدل على أن قتله كان خطأً، وأن موسى لـم يكـن قـد أُمِر بقتـل ولا قتـال[4]، ولكـن يظهـر أن الـضربة كانـت قويـة، ودليل على أن موسـى كـان قويـاً في بنيتـه الجـسدية، فلمـا رأى أنـه قتـل شخـصاً بفعله هذا؛ رجع إلى نفسه نادماً على ذلـك مبيّنـاً أن الغـضب الـشديد مـن عمـل الشيطان، فقـد اشـتد غـضب موسـى علـى الرجـل حتـى ضـربه ضـربة مـات علـى إثرها، فالشيطان عدو للإنسان ومُضلٌ له حين يُزين له فعل القبائح.

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (13/ 259).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 633).

(3) ينظر: القاموس المحيط: (ص:528).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 137).

وقولــه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾، سارع إلى طلب المغفرة من الله، فقد ظلم نفسه بهذا الفعل، وهو قتل القبطي خطأً، وفي هذا دليل على وقوع الذنب من الأنبياء قبل النبوة، ولكنهم لا يُصرون عليها، بل يُسارعون إلى التوبة، فغفر الله له ذلك، وذيّل الآية بأنه هو الغفور الرحيم، يغفر ذنوب التائبين ويرحمهم بذلك.

وقولــه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾، عاهد موسى ربه بما أنعم به عليه من القوة والحكمة والعلم وقبول التوبة والإفاقة من الذنب، فلن يكون معيناً لظالم على مظلوم بعد اليوم، ولا لصاحب إجرام على جرمه، ولا لصاحب فساد على فساده، بل سيتبرأ منهم ويبتعد عنهم، والآية دليل على تحريم معاونة أهل الباطل وأهل الجور في كل أمورهم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾، فدخل في وقت الصباح المدينة التي قتل فيها القبطي، وهو خائف عاقبة فعله من أهل القبطي المقتول، ينتظر ردة فعلهم السيئة نحوه، **والترقب هو** انتظار المكروه[1]، فإذا بالإسرائيلي الذي تقاتل مع القبطي بالأمس يتضارب مع قبطي آخر، فلما رأى موسى صاح بأعلى صوته وطلب منه المساعدة، **فقال موسى للإسرائيلي:** أنت صاحب غواية ظاهرة وشر كثير، فقد كنت بالأمس سبباً لقتلي للقبطي، ولا شك أن طغيان الفراعنة على بني إسرائيل هو سبب لتلك المشكلات بينهم، فقد كان الفراعنة يستخدمون

(1) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 527).

الإسرائيليين بدون أجرة، فمن رفض منهم آذوه.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾، فلما تأكد موسى من ظلم القبطي للإسرائيلي اقترب موسى منه، وقد اشتد غضبه عليه، فخاف الإسرائيلي منه وظن أن سيضربه هو، **فصاح بموسى:** أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، وتريد بهذا الفعل أن تكون جباراً في الأرض باستخدام القوة مع كل من خالفك، ولا تريد أن تكون من المصلحين بين المتخاصمين بالحسنى، فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي؛ علم أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس، فانطلق إلى آل فرعون فأخبرهم بذلك، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفشاه الإسرائيلي(1).

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾، فلما وصل الخبر إلى فرعون بأن موسى هو الذي قتل القبطي، تشاور الملأ وهم كبار مستشاريه ووزراؤه، واتفقوا على قتله، فبعثوا في طلبه، فسمعهم رجلٌ مؤمن من آل فرعون يعرف موسى ويحبه، فأشفق عليه وجاءه مسرعاً في خطواته قادماً من طرف المدينة، وهو المكان الذي فيه قصور الفراعنة، وكان حريصاً أن يسبق بالخبر إلى موسى قبل أن يصله طلب الفراعنة له، وطلب منه أن يخرج من المدينة سريعاً إلى مكان لا تصله سلطة آل

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 190).

فرعون حتى ينجو من شرهم، فهو له ناصح أمين حين أمره بالخروج.

وقولـه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾، فاستجاب موسى لنصيحة الرجل الصالح، وخرج من المدينة خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به، وإدراكهم له، داعياً الله طالباً منه النجاة من بطش وشر الفراعنة الظالمين الذين وجدوا فرصة للتخلص منه، فاستجاب الله له ونجاه منهم، فتوجه نحو قرية **مدين**، وهي من قرى الشام قريبة من خليج العقبة، **وتُعرف اليوم باسم** منطقة (البدع) في السعودية، وهي بلدة بين تبوك والساحل على بعد مائة واثنين وثلاثين كيلو متر غرب مدينة تبوك[(1)]، ولم تكن تحت سلطة الفراعنة، ودعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يدلّه على الطريق الأقصر والأسهل للوصول إليها بأمن وسلام؛ لأنه كان لا يعرف الطريق وليس له رفيق، ويخشى أن يُكتشف أمره، فاستجاب الله دعاءه فدلّه على الطريق الموصل إليها.

وقولـه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾، فلما بلغ مدين مرّ بمكان ماء القرية، وقد جرت العادة أن الغريب إذا جاء ديار قوم أن يقصد مكان الماء، لأنه مجتمع الناس، فهنالك يتعرف على من يصحبه ويضيفه[(2)]، وكان ذلك بعد الظهيرة، وهو وقت عودة

---

(1) ينظر: المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية: (ص:407).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 98).

الأنعام من مراعيها للشرب من الماء قبل أن يعودوا بها إلى منازلهم، فوجد عدداً كثيراً من الناس، وهم من مالكي الأنعام ورعاتها، قد اجتمعوا من أجل سقي أنعامهم، ووجد امرأتين في جهة مبتعدة عنهم تطردان الأنعام عن الماء، حتى لا تشرب، فلما رأى موسى المرأتين تمنعان أنعامهما من الشرب، سألهما عن السبب، فأخبرتاه بأنهما يكرهان سقي أنعامهما في وقت مزاحمة الرجال، وأنهما ينتظران انصرافهم، ويخلوا لهما المكان، واعتذرتا عن حضورهما لسقي أنعامهما بسبب عدم وجود رجال في بيتهما، غير والدهما، وهو شيخ كبير في السن لا يستطيع ذلك لضعفه[1].

وقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾، فلما سمع عذر المرأتين قام بما تمليه عليه مروءة الرجل الصالح، وشفقته عليهما؛ فسقا لهما أنعامهما، وانصرفتا بها إلى منزلهما، ثم رجع موسى من مكان السقي إلى الظل الذي كان جالساً عليه قبل السقي للمرأتين، فلما استراح من مشقة السقي ووجد برد الظل، وشعر بالجوع، فقدّم الثناء على الله قبل سؤال حاجته، وهذا من آداب الدعاء، فتذكر النعم السابقة التي أسداها الله إليه من نجاته من القتل وإيتائه الحكمة والعلم، وتخليصه من تبعة قتل القبطي، ثم طلب من الله ما يأكله، وكان قد اشتد عليه الجوع[2]، فجمع بين الاعتراف بالنعم السابقة عليه كلها وحاجته إلى غيرها، فما زال محتاجاً إلى نعمه ومفتقراً إليها.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 100).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1358).

وقولـه: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾، فاستجاب الله دعاءه فضلاً منه ومِنّة، بفاء التعقيب التي تدل على حدوث الشيء عقب ما قبله مباشرة، فقد ذهبت المرأتان إلى البيت مُبكرتين على غير العادة، فسألهما أبوهما عن السبب، فذكرتا له ما فعله الرجل الصالح معهما، فأرسل إحداهما إليه تدعوه، فجاءته تمشي في حياء تام، لأنها ستُقابل رجلاً أجنبيًا بمفردها، وأخبرته بأن أباها يطلب منه أن يحضر معها إلى بيته من أجل أن يعطيه أجر سقيه لأنعامه، فأخبرته سبب الدعوة والهدف منها، وكان محتاجًا إلى من يُؤويه ويُطعمه، فاستجاب لطلبها وذهب معها، وقد كان فعْل موسى معروفًا محضًا لا يطلب عليه جزاء؛ لأنه لا يعرف المرأتين ولا بيتهما، وكان فعْل شعيب كرمًا محضًا، وضيافة لرجل غريب[1]، **وقد اختلف المفسرون من هو أبو البنتين، فجمهور المفسرين على أنه** شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **ويرى ابن كثير** أنه ليس شعيبًا، لأن بين شعيب وموسى فترة زمنية كبيرة، **ورجّح** أنه رجل صالح غير شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[2]، فلما وصل إلى بيت الرجل الصالح آواه وأطعمه، ثم سأله عن حاله، فقص عليه موسى قصته، وأخبره بأخباره، فقال له: اطمئن ولا تخف، فقد نجوت من أذية آل فرعون الظالمين الذين يبحثون عنك، فإنهم لا سلطان لهم على أرضنا.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 104).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 228).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن من أراد الجزاء الحسن من الله؛ فليكن متقناً في عمله، مخلصاً في عبادته، موصلاً الخير إلى خلق الله.

2- أن من آداب الدعاء؛ الاعتراف بالذنب قبل سؤال مغفرته من الله.

3- أن نجدة المظلومين وإنقاذهم من الهلاك؛ من صفات عباد الله الصالحين.

4- بيان مشروعية النصيحة للمعتدي والغاوي، وتنبيهه إلى سوء أخلاقه قبل تأديبه.

5- من لطف الله بموسى أن هيأ له من آل فرعون من يبلغه بمكرهم به قبل أن يصلوا إليه.

6- أن الترقّب والهروب من أسباب النجاة.

7- بيان أهمية الالتجاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ودعائه وقت الشدة.

8- بيان فضيلة الحياء وأهميته للمرأة.

9- جواز خروج المرأة للعمل عند الحاجة بحشمة وحياء.

تفسير المقطع الثالث من سورة القصص

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ
أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى
وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ
مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ
ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن
شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ
أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ
أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾، لما جاء موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى بيت الرجل الصالح في مدين وقص

عليه القصص وأمّنه على نفسه، قالت إحدى ابنتي الرجل لأبيها: اطلب منه أن يعمل عندنا أجيراً في رعي الأغنام، وهي البنت التي ذهبت لتأتي به من مكان السقي، فقد كانت أكثر علماً بحاله من التي لم تذهب، وعلّلت ذلك الطلب بقوّته وأمانته، فقد عرفت قوّته ونشاطه حين نزع الماء من البئر، وأمانته في أخلاقه من خلال تصرّفه، فلم يكن يتطلّع إلى مفاتن النساء، بل كان يغض بصره عنهن[1]، **وهاتان الصفتان ضروريتان** في كل من يُكلّف بعملٍ مهما كان العمل، من رئيس الدولة إلى أصغر وظيفة، فلا بد أن توجد في الموظف المهارة والقدرة على تنفيذ العمل المطلوب، والأمانة المُتعلقة بدين الشخص وأخلاقه، فلا يغِش ولا يخدع في عمله، فهما شرطان رئيسيان في تولية المسؤولية ونجاحها، فبعض الناس قد يكون قوياً ولكن لا أمانة لديه، وبعض الناس قد يكون أميناً ولكنه ضعيف المهارة والقدرة على العمل، فلتكن هذه قاعدة مُطّردة في اختيار كل العاملين لكي يتحقق النجاح للعمل.

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾، **وافق الأب على اقتراح البنت،** لحاجته إلى من يرعى له أنعامه، وعرض الفكرة على موسى، **وقال له:** أرغب في تزوجيك إحدى ابنتي اللتين رأيتهما عند سقي الماء، فخيّره أن يختار من شاء منهما، مُقابل أنك تكون أجيراً لي لمدة ثمان سنوات، ولو جعلتها عشراً فهذا فضلٌ منك وكرم، وليس

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 562).

واجبًا عليك، ولا أرغب في حصول المشقة عليك في إلزامك بالعشر السنين أو في كثرة الشروط ونحوها أثناء تنفيذك العمل، بل ستجدُني إن شاء الله رجلاً صالحًا حسن الصحبة، يُحب الخير لنفسه وللآخرين، فوافق موسى على عرض الرجل الصالح، وتزوج إحدى بنتيه، وهي التي جاءت إليه لتدعوه، وإنما اختارها دون أختها لأنها هي التي عرف أخلاقها باستحيائها وكلامها، وظاهر الآية أن الإجارة المذكورة قد جُعلت مهراً للبنت[1].

وفي الآية إشارة إلى جواز عرض الرجل بنته على الرجل الصالح، خلافًا لعُرف الناس اليوم، الذين لا يقبلون ذلك ويعتبرونه عيبًا، فأحجم بسببه كثير من الصالحين عن عرض بناتهم على الشباب الصالحين.

وقوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾، فوافق موسى على العرض، وتزوج ابنة الرجل الصالح مقابل أن يكون أجيراً عنده ثمان سنوات، أو عشراً، بحسب ما يختاره موسى في نهاية المدة، فإن قضى ثمان وذهب فلا حرج عليه، ولا يطالب بزيادة عليها، وإن جعلها عشراً فذاك تفضلٌ منه وكرم، ولا سبيل للرجل بأن يعتدي عليه ويلزمه بأكثر من الأجلين، وجعلوا الله هو الشاهد بينهم على هذا الاتفاق، وهو الوكيل والحسيب عليهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 106).

ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾، تزوّج موسى وعاش فترة العقد في رعي أنعام الرجل الصالح في مدين، فلما انتهى من مدة الإجارة، وهي العشر السنوات، **كما في الحديث**: **"قضى أكثرهما، وأطيبهما"**[1]، وكان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فاستأذن صهره في ذلك، فأذن له، وسار بأهله من مدين حتى وصل وادي جبل الطور، وكان سفره في ليلة شاتية باردة ومظلمة لا قمر فيها، فرأى ناراً بعيدة تشتعل بجانب جبل الطور فحصل له منها الأُنس والطمأنينة، فطلب من أهله أن تنتظره في مكانها حتى يذهب إلى مكان النار لعله أن يجد عندها من يدلهم على الطريق؛ لأنهم كانوا قد ضلوا الطريق الصحيح، فإن لم يجد عندها من يخبره، أخذ منها عوداً مشتعلاً بالنار يُشعل به غيره من الحطب لكي يستدفؤوا بها من شدة البرد، **والجذوة في اللغة هي** الجمرةُ الملتهبة[2].

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾، فلما اقترب من مكان النار وكان مُتَّجهًا جهة القبلة والجبل عن يمينه، سمع نداء من طرف الوادي عند أسفل الجبل في القطعة المباركة من الأرض، وسميت مباركة؛ لأن الله كلّم موسى فيها، وبعثه نبيّاً عندها[3]، وهو موضع النار الذي كان يشتعل في شجرة خضراء من

(1) صحيح البخاري: (3/ 181)، برقم: (2684)

(2) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (6/ 2300).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 143).

العوسج، وأخبره أن الذي يخاطبه ويكلّمه هو الله رب العالمين، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات[1].

وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾، ثم أمره أن يرمي عصاه التي كانت بيده، فرماها فتحوّلت إلى ثعبان شديد الحركة، **والجانّ هنا** هو الصغيرُ من الحيّات، **أي:** خلقها خلق الثعبان العظيم، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته[2]، فخاف منها موسى وترك المكان وأدبر هاربًا، ولم يلتفت إليها ولم يرجع من شدة الخوف الذي أصابه؛ لأن هذه هي أول مرة تتحول فيها العصا إلى ثعبان، فناداه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأمره أن يرجع، ونهاه عن الخوف، ووعده بالأمن منها ومن غيرها، فرجع.

وقوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾، ثم أمره أن يُدخل يده في فتحة ثوبه من جهة الصدر ثم يخرجها، ففعل، فخرجت بيضاء كالثلج من غير برص ولا مرض، وأمره أن يضم يديه إلى جسده ليذهب عنه أثر الخوف[3]، **وقيل:** أمره أن يضع يده على قلبه[4]، **وهي عادة مجرّبة** في

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 234).

(2) ينظر: لسان العرب: (1/ 482).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1362).

(4) تفسير ابن كثير: (6/ 235).

إعادة الأمن والطمأنينة إلى الخائف، **والمقصود بذلك** أن يتحلى برباطة الجأش، والتحمل للمخاوف وترك الخوف والهلع، ﴿فَذَٰنِكَ﴾، **أي**: تحول العصا إلى ثعبان، وخروج يده بيضاء إذا أدخلها إلى صدره، معجزتان وحجتان لك لكي تُرسل بهما إلى فرعون وحاشيته وأشراف قومه، تدعوهم إلى الإيمان بالله وترك الفساد في الأرض، فقد بلغوا من الفسق والفساد والإجرام منتهاه.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾، وهذا ليس تهرّبًا من موسى عن حمل الرسالة والدعوة إلى الله، فالرسالة والنبوة اصطفاء من الله للعبد، لا يُمكن لأحد أن يعتذر عنه، ولكنه ذكر ما حصل له مع آل فرعون، والله يعلم بها، من قتله نفساً خطأً، وأنهم توعّدوه بالقتل؛ فهرب منهم إلى مدين، وأنه خائف لو رجع إليهم لقتلوه، فذكر ذلك ليكون في أمنٍ إلهي من أعدائه[1]، ولمح إلى صعوبة نطقه بسبب ما حصل له وهو صغير في قصر فرعون، وتوطئة وتمهيداً لطلب تأييده بهارون ليعينه في تبليغ تلك الرسالة، **والردءُ** الإعانة[2]، وهو أفصح منه لسانًا، وهو غير مطلوب لآل فرعون، وعنده قدرة على الكلام والبيان، فطلب من الله أن يضم إليه أخاه هارون رسولاً إلى فرعون، فيكون معينًا وموافقًا له في كلامه، فهذا أدعى كي يصدقوه فيما يقول؛ لأنه في الغالب كلما كان الكلام من أكثر من شخص صدَّقه السامعون له، وكان موسى يخشى

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 115).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (14/ 167).

من آل فرعون تكذيبه لمعرفته بحالهم، وهي عادة مطّردة في كل أقوام الرسل السابقين له، فإنهم كانوا يسارعوا إلى التكذيب برسلهم بدون حجة.

وقوله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾، فاستجاب الله لطلبه، فأرسل معه أخاه هارون وقوّاه به، وعبَّر هنا بالعضُد؛ لأن الإنسان غالبًا يستخدم يده في كثير من الأعمال، أي: سنُقوي جنابك حسيًا ومعنويًا ببعثة أخيك هارون معك، ونُعطيكم الحجة والبرهان على صدق رسالتكم إليهم، ونمدكم بالتأييد والحفظ من أذيتهم، فلا يخلصون إليكما بقتل ولا بسوء ولا أذى، فقد أعطاهما آياتٍ يمتنعان بها من جميع الخلق، فلا يَصِل إلى أذاهما أحدٌ[1]، وهو وعدٌ من الله بالحماية والرعاية لهما، وبشّرهما ومن آمن بهما واتبعهما من المؤمنين بالغلبة والنصر على فرعون وقومه، وفي الآية إشارة إلى هلاك فرعون وهزيمته.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- مشروعية وجواز مشاركة المرأة بالرأي وقبول استشارتها فيما تفهم.

2- بيان أن الأمانة والقوة من أهم صفات من يتحمل المسؤولية صغيرة كانت أو كبيرة.

3- جواز أن يكون المهر منفعة.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 396).

4- بيان وجوب الوفاء بالعقود.

5- بيان فضيلة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأن الله كلّمه بدون واسطة.

6- بيان حاجة الداعية في بداية دعوته إلى من يُؤازره ويعينه في بلاغها.

7- أهمية الفصاحة والبلاغة للداعية وأثرها في قبول الناس لدعوته.

تفسير المقطع الرابع من سورة القصص

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ
ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ
ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا
لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ
﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ
ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ
لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن
رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم
مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ

يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾، **فلما جاء موسى** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ آل فرعون بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه، وهي تحوّل العصا إلى ثعبان، وإدخال يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير مرض، إضافة إلى باقي المعجزات الأخرى؛ كذبوا بها واعتبروها نوعاً من السحر الذي اختلقه موسى من عند نفسه، وسحر أعينهم به، واحتجوا على تكذيبه بأنهم لم يسمعوا أحداً ادعى أنه رسول من عند الله في عهد آبائهم السابقين لهم[1]، وهي حجة باطلة كالتي قبلها، ودليل على سفه عقولهم وفساد تصورهم.

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾، فرد عليهم موسى فريتهم بأسلوب التنزّل مع الخصم في بداية الحوار معه، وأخبرهم بأن الله هو الذي يعلم المُحق من المُبطل، ومن جاء بالرسالة من عند الله أو افتراها من عند نفسه، ومن يختم الله له بالنصر والتمكين في الدنيا وفي الجنة في الآخرة، وذيَّل ذلك بأن الفلاح والنجاح لا يحصل عليه الظالمون بسبب ظلمهم، وهو تعريض بالوعيد بسوء

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 119).

عاقبتهم، وإشارة إلى ثقته بأنه على الحق، وهذه قاعدة مطّردة في كل زمان ومكان، أن الفلاح المطلق والنجاح المطلق في الدنيا والآخرة؛ هو للمؤمنين، وإن حصل الكفار الظالمون على شيءٍ من النجاح فهو دنيوي ومُؤقت؛ لأن كفرهم وظلمهم يمنعهم من النجاح المطلق في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾، فترك فرعون الحوار مع موسى، ونادى حاشيته وكبار رجال دولته الذين هم تبع له في الرأي، وأخبرهم بأنه لا يعلم بإلهٍ لهم غيره هو، وهذا منتهى الاستعلاء والتكبر، حيث دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك لقلة عقولهم وسخافة أذهانهم(1)، ثم طلب من وزيره هامان أن يُشعل النار على الطين حتى يحمر، وهو ما يسمى اليوم بالآجر، فيبني له به بناءً مرتفعاً يبلغ به عنان السماء ليصعد عليه ليرى الإله الذي زعم موسى أنه في السماء، لأنه يشك في صدق موسى في خبره عن الله، وهذا من فساد تفكيره إذ حسب أن السماء يوصل إليها بمثل هذا الصرح(2).

وقوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وازداد فرعون تكبراً بهذا الفعل في أرض مصر التي كان يحكمها؛ ولم ينقاد للحق الذي جاء به موسى، وتكبر من معه من الجنود عن

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 238).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 123).

قبول الحق؛ لأنهم تابعون ومقلدون له، وتكبرهم كان بالباطل والظلم والعدوان[1]، وظنوا أنهم لا يُبعثون يوم القيامة للحساب بين يدي الله سبحانه، وهذا كان غالب دين الكفار أنهم كانوا يُنكرون البعث والنشور في الآخرة.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾، **هذا اختصارٌ للقصة، وهي مُفصّلة في سورٍ أخرى**، فقد طالت المحاورة والنقاش وابتلاء آل فرعون بالآيات إلى أن جاء موعد هلاكهم، فأخذ الله فرعون وجنوده فطرحهم في البحر وأغرقهم جميعًا، فانظر أيها الناظر في حالهم نظر اعتبار وتفكر بسوء عاقبتهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر، وظلمهم الرسول بالاستكبار عن سماع دعوته، فهذا هو موضع العبرة والعظة من سوق هذه القصة ليعتبر بها كفار قريش المكذبون لمحمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه، وأن ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيبهم لا محالة[2]، إذا استمروا على الكفر والتكذيب.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾، وصيّر الله آل فرعون قدوة في الشر للطغاة والمُفسدين في الأرض، فهم سائرون على نهجهم يدعون غيرهم إلى الكفر والإجرام والفساد الذي مصيرُ من فعله النار، ويوم القيامة لا ينجون من العذاب، بل يقعون فيه، ولا يجدون من يُنقذهم منه،

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 400).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 125).

وجعل اللعنة ملازمة لهم على ألسنة الخلق في الدنيا، فكلما ذُكروا لُعِنوا، فصار الخزي والطرد من رحمة الله مُلاحقًا لهم إلى يوم القيامة؛ لأنهم نموذجًا سيّئًا للفساد والطغيان، ويكونون يوم القيامة من الذين قُبّحت أعمالُهم، وأُبعدوا وطُردوا عن رحمة الله[1].!

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أعطى الله موسى التوراة بعد خروج بني إسرائيل من مصر إلى سيناء وهلاك فرعون وجنوده، كما أهلك الله الأمم السابقة التي كفرت بالرسل، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم، وفي الحديث: **"ما أهلك الله قومًا، ولا قرنًا، ولا أمةً، ولا أهل قرية، بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية التي مسخت قردة"**[2]، وهم أصحاب السبت، بسبب مخالفتهم أمر الله، وعدم قبولهم النصيحة، والبصائر الحجج والبراهين التي احتوت عليها التوراة، وبها يُبصرون الحق من الباطل، وجعل التوراة هدى من الضلال لمن اهتدى بها، ورحمة لمن آمن بها، ولعلّ الناس الذين خوطبوا بالتوراة يتّعظون بهذه النعم، فيُؤمنوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويشكرونه عليها.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾، الخطاب لنبيّنا محمدٍ ﷺ، أي: وما كنت موجوداً في ذلك الزمن ولا حاضراً

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 201).

(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم: (2/ 442)، برقم (35349)، وإسناده صحيح.

ذلك المكان، وهو الجانب الغربي من جبل الطور، حين أوحينا بالرسالة إلى موسى، ولم نُشهدك على ما جرى هنالك[1]، حتى تعرف قصته وتسردها على قومك مفصّلة، وهذه من الأدلة العقلية على إثبات نبوة محمد ﷺ، لو تدبرها كفار قريش، فمحمد ﷺ يُخبرهم بقصص لا يعرفونها، وهو لا يقرأ ولا يكتب، ولا استمع أخبارها، فمن أين عرفها؛ إلا بوحيٍ من السماء!.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥﴾، ولكنّا خلقنا أممًا من بعد موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فمكثوا زمنًا طويلاً حتى نسى كفار مكة الرسالات، وتركوا العمل بشرائعها، وأصبحوا من أهل الفترة الذين لا يعرفون دينًا ولا شرعًا، فغابت عقولهم واستحكمت جهالتهم، فكفروا بك[2]، ولم تكن ساكنًا ولا مقيمًا مع أهل مدين حين أخبرت عن نبيّها شعيب، وما قال لقومه[3]، وما ردوا عليه، ولا حين نزل فيها موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حتى تخبر قريشًا بقصته وزواجه من بنت الرجل الصالح ورعيه للأغنام فيها عشر سنين، ولكنّا أرسلناك إلى قريش وأخبرناك بقصص الأنبياء من قبلك بوحينا بها إليك.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾، ولم تكن يا محمد موجوداً

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 406).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1367).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 240).

بجوار جبل الطور حين نادى الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو النداء لميقات أربعين ليلة، وإنزال التوراة إليه(1)، فلم تشهد شيئًا من ذلك فتعلمه، ولكن أرسلناك رحمة للخلق، وأوحينا إليك بهذه الأخبار ليعرف كفار مكة أنك نبي مرسل، فتنذرهم وتعظهم بها، فأنت أول رسول إليهم، فلم يأتِ إليهم قبلك من رسول، فلعلهم يتّعظون بهذه الأخبار ويؤمنون بك ويتوبون عن شركهم وكفرهم.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، ولو أهلكناهم بسبب شركهم وكفرهم بالله، قبل أن نُرسل إليهم رسولاً يدعوهم إلى الإيمان؛ لقالوا: هلّا أرسلت إلينا رسولاً، فنتّبع آياتك الشرعية ونعمل بها، ونكون من المؤمنين برسولك، قبل أن تُهلكنا! ولكان لهم في ذلك حجة عند الله، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يترك لهم حجة على الكفر، بل أرسل إليهم الرسول، وأعطاهم مهلة للإيمان به، ولم يعاجلهم بالعقوبة على كفرهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾، أخبر الله عن موقف كفار قريش من بعثة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ورسالته إليهم، فقد كذبوا به وأعرضوا عن دعوته، وتعنتوا في طلب المعجزات الحسية منه، كمعجزات موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من العصا واليد، ونحوها، والله قد أعطى محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، معجزة أعظم من معجزات موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإن معجزات الرسل تكون تبعًا لما هو

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 133).

مشهور في أقوامهم، فقوم فرعون كانوا مشهورين بالسحر، فجاءت معجزة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في تحوّل العصا إلى ثعبان فتلقف ما يصنع السحرة وتُبطله، وفي عهد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان قومه مشهورين بالطب، فجاءت معجزته في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وكان العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ مشهورين بالبلاغة والفصاحة، فكانت معجزته بالقرآن الذي تحداهم الله أن يأتوا بسورة مثله، ومع هذا فقد أعطى الله محمداً ﷺ معجزات حسية أخرى، مثل انشقاق القمر ونحوها، ثم رد الله عليهم هذا الاقتراح الذي أخذوه من اليهود لمجادلة محمد ﷺ به، بأن هناك من البشر من قد كفر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة[1]، ووصفوا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومحمداً ﷺ بأنهما ساحران، تعاونا على الضلالة، أو أن ما جاءا به من التوراة والقرآن سحران، كلٌّ منهما يؤيّد ويقوّي الآخر، وهما قراءتان متواترتان[2]، وقد كفر اليهود بهما وبما جاءا به من التوراة والقرآن[3].

وقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾، **أمر الله رسوله** ﷺ أن يطلب من المكذبين بالتوراة والقرآن وما فيهما من خير وهداية للبشرية، أن يأتوا بكتاب آخر غيرهما من عند الله فيه

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 242).

(2) **قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿سِحْرَانِ﴾، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر:** ﴿سَاحِرَانِ﴾، ينظر: السبعة في القراءات: (ص:495).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 412).

هداية وخير للبشرية أكثر مما فيهما، وهو سيتبعه معهم، إن كانوا صادقين في دعواهم أن التوراة والقرآن سحران، وأنّى لهم ذلك،! فليس عندهم كتاب ولا حجة على دعواهم الباطلة.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾، فإن لم يجيبوك إلى ما طلبتهم من الإتيان بكتاب من عند الله أهدى من التوراة والقرآن، ولم يقبلوا الحق الذي جئتهم به؛ فاعلم أنهم لا يطلبون الحق بدليله وحجته، وإنما هم يسيرون وراء أهوائهم الباطلة وشهواتهم المنحرفة، ولا أحد أكثر ظلماً لنفسه من شخص يتبع هواه ويترك اتباع الحق بدون حجة ولا برهان، وذيّل الله الآية بقاعدة مطّردة في حقهم وحق أمثالهم، وهي حرمان الظالمين من الهداية إلى الحق، لأنهم قد سدّوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليها أبواب الغواية وسبلها، والمقصود بها هنا هداية التوفيق؛ لأن الظلم والإجرام مانعان من موانع التوفيق للهداية وقبول الحق.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – أن من طبيعة أهل الباطل والطغيان أن يردوا الحق بأدنى شبهة.

2 – أن التكبر مانع من موانع قبول الحق واتّباعه.

3 – بيان سوء عاقبة المتكبرين والمُتجبرين في الأرض مهما حصل لهم من تمكين مؤقت.

4- بيان أن للحق دعاة وأئمة، وللباطل دعاة وأئمة، فانظر من تتّبع منهما.

5- أن العلم والهدى يضعف ويذهب بتطاول الزمن، فقيّض الله من يقوم بتجديده بين الحين والآخر.

6- أن اتباع الهوى سبب من أسباب الضلال.

7- أن الظلم مانعٌ من موانع هداية التوفيق.

تفسير المقطع الخامس من سورة القصص

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ
أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟
ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا
تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ
مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ
مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ
حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا
ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾
وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا

مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾، **هذا بيانٌ للمشركين وكفار قريش** بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أنزل القرآن على نبيه محمد ﷺ، على فترات متتالية، شيئًا فشيئًا، فنزوله لم ينقطع عنهم، بل استمر ثلاثًا وعشرين عامًا، والتوصيل تكثير الوصل وتكريره، **أي:** أن القرآن أتاهم متتابعًا متواصلاً، وعداً ووعيداً، وقصصًا وعبراً ومواعظ في وقت الحاجة إليها؛ ليتعظوا بها فيفلحوا[1]، فالعظة والعبرة في تواصل نزول القرآن أبلغ من نزوله جملة واحدة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾، أخبر عن قومٍ من بني إسرائيل ممن أوتوا التوراة والإنجيل من قبل القرآن، بأنهم يؤمنون بالقرآن وبمحمد ﷺ، كعبد الله بن سلام من علماء اليهود، والراهب بحيراء من علماء النصارى، وسائر من أسلم من أهل الكتاب[2]، فقد جاءت البشارة به في كتبهم، وإذا قُرئ عليهم القرآن آمنوا به وصدقوا بما فيه، وشهدوا بأنه الحق، وأنه مُنزّل من الله

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 648).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 206).

سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأخبروا عن أنفسهم أنهم كانوا قبل نزول القرآن خاضعين مستسلمين لأمر الله سبحانه، ولما جاءت به الرسل.

وقولـــه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾، فكل من آمن من أهل الكتاب بنبيه، وآمن بمحمد ﷺ، فإنه يُعطى أجرَه مرتين يوم القيامة، مرة بسبب إيمانه برسوله، ومرة بسبب إيمانه بمحمد ﷺ، **والباء** سببية، **أي**: بسبب صبرهم المطلق، الذي يشمل جميع أنواع الصبر الواجب، وهي: الصبر على طاعة الله، والصبر عن المعاصي، والصبر على الابتلاءات والمحن، ويدخل في ذلك صبرهم على الإيمان بالكتاب الأوّل، واتباعهم لمحمد ﷺ، وصبرهم على ذلك، ويدفعون الكفر بالإيمان، والمعصية بالطاعة، ويدفعون الأذى بالتعامل والرد الحسن، ويتصدقون مما أعطاهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من المال والخير في وجوه الطاعات والقُربات، ويحسنون به إلى الفقراء والمحتاجين.

وقولـــه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾، ومن صفاتهم أنهم إذا سمعوا الكلام الباطل وما لا فائدة منه أعرضوا عن سماعه والاشتغال به وحضور مجالسه، وتعاملوا مع أهله بالمتاركة، فكل واحد يتحمل وزر عمله، وأجابوهم بالجميل من القول، فلنا أعمالنا، فقد رضينا بها لأنفسنا ولا يلحقكم من أثرها شيء، ولكم أعمالكم قد رضيتم بها لأنفسكم، ولا يلحقنا من أثرها شيء، ولكم منا المسالمة فلا تُؤذونا ولا نُؤذيكم، ولا تسمعوا منا ما لا تحبون؛ لأننا لا نريد محاورة أهل

الجهل ولا جدالهم[1]، **وقولهم للكفار**: سلامٌ عليكم، هذا سلام المتاركة، لا سلام التحية، فإن سلام التحية لا يُلقى على الكافر من المسلم، فقد نهى النبي ﷺ أن يُبدأ الكفار بالسلام[2]، وهذا كان قبل الأمر بالقتال[3].

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، **هذه الآية نزلت في أبي طالب** حين مات على الكفر، فحزن النبي ﷺ، عليه أن مات كافراً، وكان يرغب في هدايته للإسلام؛ لأنه كان يحميه ويدافع عنه من أذى قريش، **ففي الحديث**: "لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: **"يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله"**، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: **"أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك"**، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة: 113]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 598).

(2) ينظر: صحيح مسلم: (4/ 1707)، برقم: (2167).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 149).

﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: 56][1]، **والهداية نوعان**[2]: **النوع الأول**: هداية دلالة وإرشاد، وهذه مهمة الأنبياء والدعاة والمرشدين، وهي المذكورة في **قوله**: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:7]، **أي**: مُرشد وداعية يُبلغهم دين الله.

النوع الثاني: هداية التوفيق والإلهام لقبول الحق، وهذه بيد الله وحده، فهو الذي يُوفّق للإيمان أو يمنع، وقد كان محمد ﷺ حريصاً على هداية عمه لحبه له، ولكن لم يرد الله توفيقه للإيمان، والله أعلم بمن يستحق الهداية، وكُتبت له في اللوح المحفوظ فيوفّقه لها، وحكم الآية عام لكل الناس، وليس خاصاً بأبي طالب وحده، فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾، **وقال كفار قريش لمحمد** ﷺ، إنا لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم[3]، وهو عذر قبيح، فرد الله عليهم ذلك القول وأخبرهم أنه قد مكّنهم من السكن في الحرم وجعلهم آمنين فيه، ومنَع عنهم عدوهم، وهم مشركون كفار بالله، فكيف لا يمنعهم من ذلك بعد أن صاروا مؤمنين به؟!، والاستفهام إنكاري توبيخي لهم، فالأمن الذي هم فيه ليس بسبب كفرهم، بل منحهم الله ذلك؛

---

(1) صحيح البخاري: (5/ 52)، برقم: (3884).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (1/ 160).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1376).

لأنهم يسكنون الحرم، وقد جعل القبائل تحترم هذا المكان ولا تُغير على أهله ولا تعتدي عليهم، وسهّل لهم مجيء الأرزاق إليهم، فيُحمل إلى الحرم ثمرات من كل أرض وبلد، رزقًا من الله لهم، لأن بلدهم ليست ذات زرع، فالذي فعل بكم ذلك هو الله، فاشكروا نعمته بكم بالإيمان برسوله، ولا تستدلوا بنعمته سبحانه عليكم على كفركم به، فهذا من سوء تفكيركم وبلادة عقولكم، ولذلك عقَّب على ذلك بأن أكثر الكفار ليسوا ذوي علم ونظر، بل هم جهلة لا يتدبرون الأحوال، ولا يتفكرون، ولو تفكروا وتدبروا لما قالوا مقالتهم الباطلة تلك.

وقوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾، كم هي الخبرية التي تفيد كثرة القرى التي غمط أهلها نعم الله من الأمن والرزق ونحوها، وقابلوها بالبطر، وهو الطغيان عند النعمة(1)، والتكبر عن الاعتراف بها وشكرها، فأهلكهم الله، وفي هذا تعريض وتحذير لكفار مكة، **أي:** لا تبطروا ما أنتم فيه من النعم، بل اشكروا الله عليها بالإيمان به، حتى لا يهلككم كما أهلك الأمم التي كفرت به وبنعمه، فأنتم ترون مساكنهم قد بقيت شاهدة عليهم، ولم تسكن من بعدهم إلا سكونًا قليلاً، ممن ينزل بها من المسافرين عند المرور بها(2)، فقد أهلك الله أهلها جميعًا، ولم يتركوا فيها خلفًا لهم(3)، كما فعل بعاد وثمود وغيرهم، وكان الله هو الوارث لِما خَلَّفوا بعد هلاكهم، لأنهم لم يتركوا وارثًا يرث

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 150).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 429).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 151).

منازلهم وأموالهم، وهو كناية عن انقراضهم عن بكرة أبيهم.

وقولــه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، ثـم أخـبر عـن سـنته في الخلق، وأنه سبحانه لا يُهلك أهل القرى الكافرة قبل أن يُرسل الرسل إليهم، فمن آمن بهم نجا، ومن كفر بهم هلك.

وأم القرى فيها قولان[1]: **الأول:** أنها على العموم، والمقصود بها مركز ما حولها من القرى وعاصمتها التي يتجمع كبار القوم وأشرافهم فيها، ويأتي الناس إليها من الأطراف؛ لأن فيها أسواقهم وحاجاتهم، **والمقصود بالرسول هنا** الجنس، فيبلغهم دين الله والأحكام الشرعية التي أوحى الله بها إليه.

الثاني: أن المقصود بها مكة؛ لأنها مركز ما حولها من القرى وعاصمتها، والمقصود بالرسول محمد ﷺ، فيبلغهم دين الله ويتلو عليهم آيات القرآن الكريم التي أوحى الله بها إليه، ولا مانع من دمج القولين في قول واحد، فإن الله لا يهلك القرى حتَّى يبعث رسولاً في القرية الكبرى منها، كما بعث محمداً في أم القرى، وهي مكة[2]، ثم بيّن أن سبب هلاك الأمم هو الظلم، وأعظمه الشرك بالله والكفر به، والواو للحال، **أي:** حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم[3].

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 389).

(2) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم: (1/ 392).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 209).

وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾، **الخطاب لكفار قريش** حين اعتذروا عن الإيمان بمحمد ﷺ، حفاظًا على ما عندهم من النعم، فرد الله عليهم بأن هذا الأمن وتلك النعم التي أنتم فيها، هي من الله وهبها لكم، تتزينون بها في الدنيا ثم تفنى وتنتهي، ولا مقارنة بينها وبين ما أعدّه الله للمؤمنين في الآخرة من النعم الخالصة عن الشوائب، الباقية دون انقطاع، أفلا تتأملون في ذلك؛ فتؤثرون النعم الباقية الكثيرة الخالصة من الشوائب على النعم الفانية القليلة المليئة بالشوائب، فمن فعل ذلك هو الإنسان العاقل!.

وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾، ثم قارن الله بين حال المؤمن وحال الكافر في الدنيا، فالمؤمن بالله ورسله موعود من الله وعداً حسنًا، وهو دخول الجنة، وهذا الوعد سيتحقق له يوم القيامة لا محالة، ويلقى فيه ما وعده الله به من النعيم المقيم، فحاله ليس كحال الكافر الذي أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئًا من متاع الدنيا الزائل فتمتع به في الدنيا وبقي على الكفر بالله، حتى هلك عليه، فكان مصيره الموعود به يوم القيامة أن تحضره الملائكة إلى النار، وتلقيه فيها، فماذا أغنى عنه متاع الدنيا الزائل الذي نهايته عذاب مقيم في جهنم؟!، **فالعاقل هو** الذي يختار الإيمان ولو ابتلاه الله بشيء من البؤس في الدنيا، ويترك الكفر ولو منحه الله شيئًا من النعم في الدنيا؛ لأنه لا مقارنة بين نعم الدنيا ونعم الآخرة، ولا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

وقولــه: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ ﴾، ثم انتقل الحديث إلى بيان حال المشركين يوم القيامة، حين يحشرهم الله بين يديه، ويُناديهم أين من زعمتم أنهم شركاء لله في الألوهية من الأوثان والأصنام؟ فلا وجود لهؤلاء الشركاء المزعومين يومئذ، فالاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم، وهو مستعمل في النفي، **وقيل:** إن المناداة هنا ليست من الله؛ لأن الله تعالى لا يكلّم الكفار، وإنما يأمر من يوبخهم ويبكّتهم، ويقيم الحجة عليهم في مقام الحساب[1]، فيجيب كبار المشركين الذي وجب عليهم العذاب بسبب كفرهم[2]، أو وجب وتعيّن عليهم الجواب عن السؤال[3]، باعتبارهم قادة القوم، بالاعتراف بربوبية الله استعطافًا له، وبالإشارة إلى اتباعهم من المستضعفين للتنصل منهم، ثم يعترفون بأنهم كانوا ضالين عن طريق الحق والهداية، وكانوا دعاة إلى الضلال والغواية، فأضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم من الأتباع لهم، وظنوا أن هذا الاعتراف كافيًا للتبرؤ من فعلهم والتخلص من العذاب النازل بهم، ثم صرّحوا بتبرؤهم من أنهم كانوا شركاء لله في الألوهية ونفوا عبادة الأتباع لهم، بل كان الأتباع يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم، واكتفوا بالاعتراف بالكفر والغواية ودعوة غيرهم إليها، وظنوا أن ذلك الاعتراف يخفف عنهم من العذاب.!

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (13/ 309).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 434).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 157).

وقولـــــه: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾، ثم يُقال للكبراء والأتباع: ادعوا شركاءكم واستغيثوا بهم واطلبوا منهم الآن إنقاذكم من العذاب، فنادَوا واستغاثوا بشركائهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، فلم يستجيبوا لهم، لعجزهم عن ذلك، ورأوا عذاب جهنم بأعينهم؛ فتمنوا لو أنهم آمنوا بالله واهتدوا إلى إتباع الحق في الدنيا؛ حتى يُنقَذوا من عذاب جهنم، ولكن هذا التمني لا ينفعهم؛ لأنه جاء منهم في غير وقته، فوقت التوبة والإيمان هو الدنيا.

وقولـــــه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾، ثم يناديهم الله يوم القيامة نداءً آخر، ويسألهم سؤال توبيخ وتقريع لهم، فتسقط به حجتهم، فيقول لهم: ما الذي أجبتم به الرسل الذين أرسلتهم إليكم في الدنيا؟! فانقطعت وخفيت عنهم الأخبار والحجج في ذلك اليوم؛ فسكتوا جميعًا، ولم ينتدب زعماؤهم للجواب كفعلهم في جواب السؤال السابق، بل أصيبوا كلهم بالحيرة، فلا يسأل بعضهم بعضًا للحصول على الجواب المناسب لشدة الموقف، ولأنهم قد علموا ألّا جواب عند أحد، لأن الله قد أدحض حجتهم، وأبطل أعذارهم ببعثة الرسل إليهم، فلم يؤمنوا بهم.

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾، ثم بيّن أن مكان التوبة والإيمان هو في الحياة الدنيا، فمن تاب من هؤلاء المشركين عن الكفر والشرك، وعمل الأعمال الصالحة في الدنيا، فهو من الفائزين في

الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة، فلا سبيل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان والعمل الصالح، وفي الآية بشارة للمسلمين على الإسلام، وترغيب الكافرين على الإيمان[1].

وقولــه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾، **في هذا بيانٌ** أن الله سبحانه هو المتفرد بالخلق والاختيار، ولا منازع له ولا معقّب في ذلك، فهو الذي يخلق الخلق كما يشاء، ويصطفي ويختار منهم من يشاء للهداية أو للرسالة والنبوة، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه[2]، فالخيرة لله وحدة، وهو أعلم بوجود الحكمة في أفعاله، وليس لأحد من خلقه أن يعترض أو يقترح عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا، بل ليس للخلق حق الاختيار لجنسهم أو لونهم أو لغتهم أو غناهم أو فقرهم، ونحوها من الأمور القدرية والكونية التي فاعلها الله وحده، فضلاً عن أن يختاروا ذلك لغيرهم.

ونزّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه عن كل ما لا يليق به مما نسبه إليه المشركون من الشركاء والأنداد والأصنام التي لا تخلق ولا تختار شيئًا.

وقولــه: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾، وأخبر عن إحاطة علمه بالخلق، فهو يعلم ما تخفيه الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 654).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 251).

ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، وهو سبحانه المستحق وحده للعبادة، فلا معبود بحق إلا الله، كما لا رب يخلق ويختار سواه، وله الحمد المطلق، والثناء الكامل في الدنيا والآخرة على كل أفعاله لعدله وحكمته فيها، ولما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أنعم به على خلقه من الفضل والإحسان[1]، وهو المتفرد بالحكم القدري والشرعي في الدنيا، والمتفرد بالفصل بين الخلق يوم القيامة، وحكمُه فيهم نافذ، ولا مُعقّب لحكمه، وجميع الخلق راجعون إليه، وموقفون بين يديه فيُحاسبهم، فيُجازي المؤمنين الصالحين بالجنة، ويجازي الكفار المجرمين بالنار.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان فضل أجر من آمن من أهل الكتاب بنبيه، وآمن بمحمد ﷺ.

2- أن الهداية نوعان: هداية التوفيق والإلهام، وهذه بيد الله وحده، وهداية الدلالة الإرشاد، وهذه من مهمات الأنبياء ومن بعدهم من العلماء والدعاة.

3- أن الإيمان سبب للأمن في الدنيا والنجاة في الآخرة.

4- بيان خطر الترف على الأمم، وأنه سبب للكفر والجحود.

5- أن من رحمة الله وعدله في الخلق؛ أنه لا يُعاقبهم حتى يقيم عليهم

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص:622).

الحجة بإرسال الرسل.

6- أن العاقل هو من يُؤثر الكثير الباقي على القليل الفاني.

7- أن التوبة الصحيحة تجبّ ما قبلها.

8- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المتفرد بالخلق، وهو الذي يصطفي من يشاء للهداية والرسالة.

9- أن الله هو المتفرد بالحكم القدري والشرعي في الدنيا، والمتفرد بالفصل بين الخلق يوم القيامة.

تفسير المقطع السادس من سورة القصص

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم
بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟
بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ
مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا
تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ
مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ
مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى
زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ
﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ

ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن
جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ
وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا
تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا
وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ
يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ
يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾، ثم انتقل من الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مخلوقاته في هذا الكون، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يذكّر الناس عموماً والكفار خصوصاً بهذه النعم العظيمة التي أسداها لهم، **ومنها**: نعمة تعاقب الليل والنهار، **والاستفهام** تقريري، **والمعنى**: أخبروني إن صيّر الله حياتكم كلها ليلاً مظلماً دائماً حتى تنتهي الدنيا، **والسرمد**: الدائم الذي لا ينقطع(1)، من إلهٌ غير الله يأتيكم بنهار مضيء، لم يذكر معمول هذا الضياء الذي هو الحياة والسعي وطلب الرزق، لأنه واضح من السياق، **والاستفهام** إنكاري، وعبّر هنا

(1) ينظر: تاج العروس: (8/ 190).

بالسمع؛ لأنهم في ظلام دائم لا يُبصرون فيه ولا يعرفون أثر النعمة إلا بالسمع، وأخبروني إن صيّر الله حياتكم كلها نهاراً مضيئاً دائماً حتى تنتهي الدنيا، من إلهٌ غير الله يأتيكم بليل فيه الهدوء والسكينة والراحة، **والاستفهام** إنكاري، وعبّر هنا بالبصر؛ لأنهم في النهار المضيء الذي يرون فيه النعمة.

وقولــــــه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾، ثم بيّن أن رحمته بالخلق وفضله عليهم اقتضت أن تكون الحياة فيها ليل يتبعه نهار، ونهار يتبعه ليل، من أجل تحصيل المنافع للناس، فينامون في الليل ويرتاحون فيه، ويستيقظون في النهار ويعملون فيه، فعطف الليل على النهار ثم ذكر فائدة الليل لهم، وهو السكن، وعطف عليها فائدة النهار لهم، وهو الابتغاء من فضله والمقصود به الحركة في الأرض لطلب الرزق، وسمّى الله طلبَ الرزق فضلاً؛ لأن الله هو الذي يمنحه للخلق، وعليهم الأخذ بالأسباب فقط، وبيّن الحكمة والعلّة من ذلك، وهو حصول الشكر منكم لربكم الذي منّ بتلك النعم عليكم؛ فتُؤمنوا به وتستخدموا نعمه في طاعته، وفي ذلك إشارة إلى نعمة تعاقب الليل والنهار، ففي الليل يكون الهدوء والسكينة والراحة والنوم، وفي النهار يكون طلب الرزق وعمارة الأرض.

وقولــــــه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾، كُرِّرت هذه الآية بنصها مرة أخرى؛ لأن التكرير من مقتضيات التوبيخ والتقريع للكفار في هذا المقام، **وقد سبق تفسيرها عند الآية (62)**،

وظاهر الآية أن ذلك النداء يكرّر يوم القيامة مرتين، ويحتمل أنه نداء واحد يقع عقبه جواب الذين حق عليهم القول من مشركي العرب، ويقع عقبه نزع شهيد من كل أمة يشهد عليها، فيشمل كل الأمم[1]، **والنزع هو** قلع الشيء وإخراجه من مكانه[2]، **والمقصود به هنا** أن الله يُخرج من كل أمة شهيداً يشهد على أمته يوم القيامة، وهو النبي الذي بُعث فيها[3]، ويُخاطب الله المشركين الكفار ويطلب منهم حجتهم ودليلهم على شركهم وكفرهم بالله وعبادة غيره، فعجزوا عن إقامة البرهان على ذلك، واعترفوا بضلالهم، وعلموا حينئذ أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وأن ما كانوا عليه من الشرك بالله باطل وضلال، وذهب عنهم وبطل كل ما كانوا يختلقونه من الكذب في الدنيا بأن لله شركاء يستحقون العبادة.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾، ذكر الله في هذه الآيات قصة قارون، وهو من بني إسرائيل، وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عم موسى[4]، ولكنه تجاوز حده في الكبر والتجبر عليهم غروراً بنفسه وماله، فقد أعطاه الله أموالاً كثيرة وكنوزاً عظيمة، **والمقصود بالكنوز** الذهب والفضة، فهي التي كانت تُكنَز آنذاك، حتى أن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية من الناس وتميل بهم إذا حملوها، **والعُصبَة:** الجماعة من

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 172).

(2) ينظر: المعجم الوسيط: (2/ 913).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 213).

(4) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 616).

الرجال من العشرة إلى الأربعين[1]، وكانوا أصحاب قوة في أجسادهم، فإذا كان هذا وصف المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟! فنصحه الصالحون من قومه، لأن النصيحة لا تكون إلا من أهل الإيمان والصلاح، أما أهل الدنيا فهم يتقربون من أهل المال لعلّهم أن يحصلوا على شيءٍ منهم، وحذروه من الطغيان، ونهوه عن فرح الأشر والبطر، وهو السرور بغير حق، وأخبروه بأن الله لا يحب الفرحين الأشرين البطرين بالنعم، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، وفرحهم مذموم؛ لأنهم استخدموا النعمة في معصية الله، والتكبر بها على خلق الله، بخلاف الفرح الممدوح فإن الله يحبه، وهو أن تفرح بالخير والنعم وتستخدمها في طاعة الله، وتُظهر السرور بها على نفسك بلا أشر ولا بطر، **كما قال سبحانه:** ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[يونس: 58].

وقوله: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾، نصحه الصالحون من قومه أن يستغل هذه النعمة، وتلك الأموال، فيعمل ما ينفعه في الآخرة، فيصرفها في أبواب الخير، ويستعين بها على طاعة الله، وأن يستمتع منها بما أحل الله تعالى له[2]، وهو ما يحتاج إليه فيها من مأكل ومشرب ومركب وزوجة ومسكن ونحو ذلك، وكل ما أنفقه الإنسان في المباح بدون أشر ولا بطر فهو داخل في نصيبه من الدنيا؛ لأن الله خلق في النفس غريزة حب المال

---

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (1/ 182).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 625).

والفرح به، ونصحوه بأن يحسن إلى خلق الله بالعطاء من ذلك المال، بالصدقة والهدية ونحوها، كما أن الله قد أحسن إليه حين أعطاه ذلك المال وتلك النعم دون استحقاق منه لها، بل منّة من الله وفضل عليه، ونهوه عن استخدام ذلك المال في الفساد في الأرض بالتكبر وفعل المعاصي والمنكرات ونشر الباطل وأذية الخلق، **وجملة:** ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾، علّة للنهي عن الإفساد، لأن العمل الذي لا يحبه الله لا يجوز لعباده عمله(1)، فالله لا يحب المفسدين، بل يبغضهم ويبغض أعمالهم السيئة، وسيعاقبهم على ذلك.

وقولــه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾، فرفض قبول النصيحة من صالحي قومه، وادَّعى أن هذا المال جاءه بعلمه واجتهاده في جمعه، أو أن الله علم أنه يستحقه فأعطاه(2)، فكفر حين نسب النعمة إلى نفسه، فعقّب الله على دعواه تلك باستفهام إنكاري تعجبي من قوله هذا، ونبّهه إلى أن إعطاء الله المال والنعم للعبد لا يدل على أنه محبوب عند الله، بل قد يكون هذا المال سبباً لاستدراجه وهلاكه، فقد أهلك الله من قبله الأمم المكذبة، وكانت أكثر أموالاً، وأشد قوة، وأكثر عدداً منه، فلم تنفعهم قوتهم ولا أموالهم، ولا كثرة عددهم حين نزل بهم عذاب الله، ولا يُسأل يوم القيامة المجرمون عن ذنوبهم سؤال استفصال عنها لعلم الله بها، وانقطاع حجة المجرم عند الله، بل

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 180).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 300).

يسألون سؤال توبيخ وتقريع لهم[1].

وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾، ورغم النصيحة له إلا أنه استمر في تكبره على الخلق، فخرج على قومه في لباس جميل وموكب عظيم مع حشمه وخدمه كالمعاند لمن نصحه بالتواضع، فلما رآه ضُعفاء الإيمان من أصحاب الدنيا المشغولون بحطامها؛ تمنّوا أن يكون لهم من المال والثراء والغنى مثل الذي رأوه مع قارون، فمن أُعطي ذلك فهو صاحب نصيب وسُعد عظيم؛ لأن تفكيرهم كله كان حول الدنيا ومتاعها.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾، فردّ عليهم أهل العلم بالله وشرعه من قومهم: ويلكم لا تغتروا بحاله ولا بما آتاه الله من النعم الدنيوية، بل ما أعده الله من الثواب والأجر في الآخرة لمن آمن وعمل صالحًا في الدنيا، خيرٌ من هذا الذي مع قارون، وليس قارون ذا حظ عظيم، بل صاحب الحظ العظيم هو الذي يقبل النصيحة ويعمل بها ويصبر عليها، فيجازيه الله بالجنة بسبب صبره المطلق في الدنيا على الطاعات وعن المعاصي وعلى الابتلاءات، أو لا يقول هذه العبارة الصادقة وهي ثواب الله خير، إلا من وُفّق إلى الصبر على إيثار ما عند الله على ما عند البشر في الدنيا[2]، ولا تعارض بين القولين وكلاهما يحتمله اللفظ.

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1388).
(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 394).

وقولـه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾، **الفاء** للتعقيب **أي**: تـم الخسف بالموكـب مع الدار بعد هذا الحوار، حين دخل قارون وموكبه إلى داره، والخسف: هو أن تسوخ الأرض وتغوص إلى أسفل بمن عليها[1]، **والمعنى**: أن الله سبحانه غيّبه، وغيّب داره وما فيها من أموال وخزائن وحشم؛ لأن الخسف أصاب الدر ومن فيها، فلما حصل له ذلك ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه، ولم يقترب أحد من الخلق لنجدته وإنقاذه، لعجزهم عن ذلك، ولم يكن من الناجين الممتنعين عن الهلاك، بل هلك هو ومن معه أجمعين، **وفي الحديث**: "**بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**"[2]، **أي**: يتحرك وينزل في جوفها إلى قيام الساعة.

وقولـه: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وصار الذين تمنّوا مكانته بالأمس القريب بعد أن رأوا ما أصابه من الخسف، **يقولون**: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾، **وهما كلمتان** "وَيْ" و"كأنَّ"، وهي كلمة تقال عند التنبيه على الخطأ والندم[3]، **أي**: فتنبّه القوم فتندموا على ما صدر منهم من التمني لمكانته بالأمس، **ثم يسألون أنفسهم متحسرين**: أليس الله يوسّع الرزق

(1) ينظر: لسان العرب: (9/ 67).

(2) صحيح البخاري: (7/ 141)، برقم: (5789).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (4/ 157).

لمن يشاء من عباده، ويضيّقه على من يشاء منهم، ابتلاءً وامتحاناً لهم؟!، فأين كنّا عن هذه المعلومة الواضحة البينة؟!، ولو قدّر أن الله أعطانا ما أعطاه، وصرنا مثله في الطغيان؛ لحصل لنا من الخسف ما حصل له، ولكن الله منّ علينا بحفظنا من ذلك لرحمته بنا وفضله علينا، **ثم قالوا:** "ويْكَأن"، متعجبين من عدم فلاح الكافرين في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾، ثم عقّب الله على قصة قارون كلها، بأن الله قد هيأ الجنة دار سكن، وأعدها الله للمؤمنين المتواضعين الذين تركوا التكبر عن الإيمان والعلو على الناس في الدنيا، وكانوا صالحين مصلحين لا يُريدون الفساد في الأرض ولا في أنفسهم، **فالعلو:** هو التكبر عن الحق وعلى الخلق، **والفساد:** هو كل فعل مذموم في الشريعة(1)، والعاقبة المحمودة تكون دائماً للمتقين، الذي تركوا الكفر والفواحش، واتقوا سخط الله بطاعته، والعاقبة المذمومة تكون دائماً للكفار، كما حصل لقارون، فقد كانت نهايته سيئة في الدنيا، وينتظره عذاب السعير في الآخرة، فدل ذلك على أن سبب دخول النار هو العلو والتكبر والإجرام والفساد في الأرض، وإرادة العلو قضية نفسية قد لا يسلم منها أحد من الخلق، فالإنسان أحياناً يطمع أن يكون كبيراً له شأن في قومه، لينفع بذلك الإسلام، ولكن المقصود به العلو المذموم وهو التكبر على الخلق بغير حق، فعلى المسلم أن يُراقب نفسه بين الحين والآخر حتى لا تقع فيه، لأن من طبيعة

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (20/ 190).

النفس حب الظهور.

ثم قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾، هذه قاعدة مُطّردة تبيّن أن من عمل حسنةً في الدنيا؛ فإن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يمنحه أجراً مضاعفاً عليها يوم القيامة، فيضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلى إضعاف كثيرة، وهذا من فضل الله ورحمته وكرمه بالمؤمنين، ومن عمل سيئة ولم يتب منها وأتى يحملها يوم القيامة؛ فإن الله يُجازيه بعقوبة مثلها فقط، وهذا من عدله مع الكافرين والعصاة.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥﴾، أخبر الله رسوله ﷺ بأن الذي أنزل عليه القرآن وألزمه العمل بما فيه لمرجعه إلى معاد، **والمعاد لها معنيان: الأول:** عودته بعد الموت إلى الجنة، **وقد صح هذا عن** أبي سعيد الخدري[1]، وعبّر بعودته إلى الجنة؛ باعتبار أن أباه آدم كان فيها وأخرج منها، وهو من ذريته، أو أنه دخلها ليلة الإسراء والمعراج[2]. **والثاني:** عودته إلى مكة، وقد صح هذا عن ابن عباس[3]، وهذا القول مناسب إن صح أن هذه الآية نزلت في أثناء هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة[4]، لأن السورة مكية، ولا مانع أن تتأخر بعض الآيات

(1) ينظر: مسند أبي يعلى الموصلي: (2/ 370)، برقم: (1131).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 642).

(3) ينظر: صحيح البخاري: (6/ 113)، برقم: (773)، وإسناده صحيح.

(4) ينظر: التفسير البسيط: (17/ 474).

في النزول، وليس بالضرورة أن تنزل السورة كلها دفعة واحدة، فتكون الآية وعدٌ من الله بعودته إلى مكة فاتحًا لها[1]؛ لأن النبي ﷺ خرج منها حزينًا، **وقال عند خروجه منها: "علمت أنك خير أرض الله، وأحب الأرض إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"**[2]، ولا تعارض بين المعنيين، فقد أرجع الله رسوله ﷺ إلى مكة فاتحًا لها، بعد ثمان سنوات من هجرته منها، وسوف يرجعه إليه في الآخرة ويدخله الجنة، وأمر الله رسوله أن يجيب على المشركين المعاندين له الذين كفروا به، وقالوا له: إنك في ضلال مبين، بأن يقول لهم على سبيل التنزّل معهم في الحوار: إن ربي يعلم بمن جاء بالهدى، ويقصد به نفسه، وما يستحقه من الثواب في المعاد والإعزاز بالإعادة إلى مكة، ومن هم أصحاب الضلال الواضح، ويقصد به الكفار، وما يستحقون من العقاب في معادهم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾، وما كنت يا محمد؛ تأمل قبل البعثة أن تكون رسولاً يُوحَى إليك بهذا القرآن بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رحمك واصطفاك واختارك، فالنبوة رحمة واصطفاء ومِنّة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما دام أن الله قد أعطاك هذه المنزلة؛ فلا تكن معاونًا للكافرين على كفرهم وشركهم بالله، حين دعوه إلى دين آبائه، بل فاصلهم وابتعد عنهم واعتزل طريقتهم، وهو خطاب للأمة كلها في شخص رسولها.

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص:1391).

(2) مسند أحمد: (31/ 13)، برقم: (8717).

وقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾، واحذر من مكرهم بك، فإنهم سيُحاولون أن يصرفوك عن إبلاغ الآيات التي أنزلها الله عليك، والعمل بها، فلا تُصدقهم ولا تُلاينهم فيما يقترحون عليك من أمور تعارض التوحيد، بل اصدع بالدعوة إلى الله وانبذ الشرك وابتعد عنه، ولا تكن أنت ولا من اتبعك من أنصار المشركين بإعانتهم على ما يريدون، وهذا تحذير للأمة من الوقوع في الشرك، فإذا حذر منه الرسول ﷺ، فأمته من باب أولى.

وقولـه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾، الخطاب لرسول الله ﷺ، **والمقصود به** أمته، فقد حذر الله الرسل من الشرك به لتقتدي بهم أممهم، أما الرسل فقد عصمهم الله من أن يتخذوا معه إلهًا، فلا تعبدوا من دون الله إلهًا سواه، فالإله الحق هو الله، وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك؛ لأنه الحي الذي لا يموت، وكل المخلوقات تموت، فلا تصلح للألوهية؛ لأن من صفات الإله أنه حي لا يموت، وعبّر بالوجه لشرفه ومكانته، والمقصود ذات الله[1]، وهو المنفرد بالحكم والفصل بين الخلق، وإليه يرجع الخلق جميعًا يوم القيامة فيحاسبهم، فيُجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 218).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان نعمة تعاقب الليل والنهار وأثرها وفائدتها للخلق.

2- بيان خطر الطغيان وأثره على صاحبه.

3- بيان أن الله يكره المفسدين ويبغضهم ولا يحبهم، وأن ما أعطاهم من نعم إنما هو استدراج لهم.

4- أن من شكر النعمة نسبتها إلى الله، ومن الكفر بالنعمة نسبتها إلى نفسك.

5- بيان الفرق بين أهل العلم والجهلة في نظرتهم للواقع والأحوال.

6- بيان أن نعيم الجنة يختُص بمن لا يُريد العلو والفساد، بأي صورة من الصور.

7- أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حقق وعده لنبيه بأن يُعيده إلى مكة بعد أن هاجر منها.

8- أن النبوة والرسالة مِنّة يُعطيها الله من يشاء.

فهرس المحتويات


لطائف البيان
في تفسير القرآن
تفسير جزئي الفرقان والنمل
(١٩-٢٠)
تأليف
أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة